

فن أصول الحكم عند ابن خلدون العريس الصفلى

المابى على مكافلى الإطالى

ITALY

Rome

Adriatic
Sea

دكتور

عادل فتحى ثابت

قسم العلوم السياسية

كلية التجارة - جامعة الإسكندرية

Tyrrhenian Sea

Sicily

Mediterranean Sea



الناشر

دار الجامعة الجديدة

٢٨ ش سوتير - الأزايطة

ت: ٤٨٢٨٠٩٩ - إسكندرية

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

* تقديم :-

هذا البحث هو محاولة من جانب الباحث للكشف عن سبق "ابن ظفر" (١١٧٠م) العربي الصقلي "مكيافلي" الإيطالي (١٥٢٧م) في تقديمه للفكر الإنساني والمعرفة السياسية "فن السياسة : Art Politique". "فابن ظفر" العربي يعد وبحق - كما سيأتي تفصيل ذلك في حينه - مؤسس "فن السياسة" بمدلوله المعاصر، وذلك على عكس ما يدعيه الغرب المعاصر من أن "مكيافلي" هو مؤسس "فن السياسة" في كتابه "الأمير". وتجدر الإشارة هنا إلى أن "جيتانو موسكا : Gaetano Mosca"^(١) قد ذكر في مؤلفه : "Storia delle dottrine politiche"^(٢) : أنه قد عثر على مخطوطة عربية بعنوان "سلوان المطاع"^(٣) لصاحبها "ابن ظفر" العربي الصقلي، وهي سابقة بحوالى أربعة قرون على كتاب "الأمير" "مكيافلي"، وأن صاحب هذه المخطوطة قد تصدى وبجدارة "لفن السياسة"، حيث قدم قواعد للأمير يجب أن يتبعها في الحفاظ على إمارته، وأن الأمير الناجح - عنده - هو الذي يملك من أدوات الحيلة ما يجعله الأكثر قوة بين نظرائه، ويعرف كيف يتعامل مع أفراد إمارته، وذكر "موسكا" أن "ابن ظفر"

(١) وهو من مواليد "بالرمو" بصقلية سنة ١٨٥٨م. انظر في هذا الشأن تصدير كتابه :-

- The ruling class, translated by Hannah D. Kalhn, New York, 1965.

(٢) والنسخة التي بين يدي الباحث هي النسخة الفرنسية، انظر :-

- G. Mosca, Histoire des doctrines politiques depuis l'antiquité jusqu'à nos jours. Preface et traduction de Gaston Bouthoul, Paris, Payot, 1936, P. 26 et 27.

(٣) ولقد أشار "موسكا" في مؤلفه المتقدم إلى الترجمة الإيطالية لهذه المخطوطة بواسطة ميخائيل عماسارى

(وهو من مواليد بالرمو بصقلية كذلك، سنة ١٧٠٦) انظر :

- Solwan el mota, di Ibn Zafer, versione Italiano di Michele Amari, Firenze, 1851.

سابق على "مكيافللى" فى هذا الشأن، إلى جانب سبقه له فى الإشارة الى مفهوم القوة فى الدراسات السياسية. بل إن "ابن ظفر" - وعلى حد تعبير "موسكا" - قد فاق "مكيافللى" فى تصوير الحيل التى يجب أن يسلكها الأمير ضارباً مثلاً عما قاله "ابن ظفر" عن الكذب، وهو يحذر الأمير منه قائلاً (كما سيأتى فى حينه): "الكذب كالسموم التى تقتل إذا استعملت مفردة، وقد تدخل فى تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغى (للأمير) أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله فى المصالح كالكذب فى كيد الأعداء وفى تأليف البعداء...".

موضوع البحث :-

ويتحدد موضوع البحث فى تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع فى عدوان الأتباع" لابن ظفر" ، وكتاب "الأمير" (بصفة خاصة وعلى سبيل الاستشهاد) "لمكيافللى" من مصادرهما الأصلية، مع ربط ذلك كله بالظروف التاريخية التى عاصرها كل من "ابن ظفر" و "مكيافللى"، وذلك تمهيداً لإجراء مقابلة بينهما لمعرفة من له سبق والأصالة فى تصوير "فن السياسة" على مستوى الفكر الإنسانى.

هدف البحث :-

ويهدف الباحث من وراء هذا البحث إلى إظهار أن ما يدعيه الغرب المعاصر من كون "مكيافللى" الإيطالى هو مؤسس "فن السياسة" هو ادعاء بعيد عن الصحة، حيث يعد "ابن ظفر" - كما سيأتى فى حينه - "مؤسس" فن السياسة" على مستوى الفكر الإنسانى قاطبة وبجدارة، وهو كذلك أول من أشار إلى مفهوم "القوة" فى الدراسات السياسية، وله سبق تاريخياً على "مكيافللى" فى هذا كله.

منهج البحث :-

ويتحدد منهج البحث على مقتضى طبيعة الموضوع وهدفه، وطبيعة موضوع البحث تقتضى تحليل نصوص كتابي "ابن ظفر" و "مكيافللى" المشار

إليهما من قبل، والمنهج الذى يستقيم هنا وذلك التحليل هو المنهج "الاستنباطى"، كما ستمثل المقابلة أداة فعالة فى تحليل الموضوع، وفى الوصول إلى الهدف من البحث.

خطة البحث :-

وحتى يتسنى للباحث معالجة بحثه على ذلك النحو، ولكى يتم الوصول إلى الهدف منه، سيتم تناول موضوع البحث من ثانيا النقاط التالية:-

• أولاً: مقدمة : يعرف فيها الباحث بعبارة "فن السياسة" فى مدلولها المعاصر.

• ثانياً : فن السياسة عند "ابن ظفر" : وفى هذا الصدد يعرف الباحث بداية بالظروف الشخصية والتاريخية التى أحاطت "بابن ظفر" وقت تأليفه كتاب "سلوان المطاع"، ولكى ينتقل الباحث بعد ذلك إلى تحليل نصوص هذا الكتاب، لمعرفة كيف قدم "ابن ظفر" مجموعة ملاحظات للواقع وأعقبها بمجموعة قواعد عمل بدت له قدرة على تحقيق أكبر قدر من الأهداف، أو بعبارة أخرى: ماذا قدم "ابن ظفر" لفن السياسة؟ كما يشير الباحث عقب ذلك إلى موقع "ابن ظفر" من المفكرين الإسلاميين السياسيين.

• ثالثاً : فن السياسة عند "مكيافلى" : وفى هذا الشأن يعرف الباحث كذلك بالظروف الشخصية والتاريخية التى أحاطت "بمكيافلى" وقت تأليفه كتاب "الأمير" (بصفة خاصة مع الإشارة إلى مطارحاته)، ثم ينتقل إلى تحليل نصوص هذا الكتاب للوقوف على ما قدمه "مكيافلى" بالتحديد "لفن السياسة" وكل ذلك على سبيل الاستشهاد لا التفصيل (كما تقدم).

• رابعاً : اجراء مقابلة بين كل من "ابن ظفر"، و "مكيافلى" فيما قدماه بصدد فن السياسة، من ثانيا تناول نقاط التشابه والتباين فيما بينهما، للوصول إلى الهدف من البحث.

• خاتمة .

التحليل :

♦ أولاً : مقدمة فى التعريف بعبارة "فن السياسة" :-

تشير عبارة "فن السياسة: Art Politique" إلى اختيار الوسائل (أو إبداعاتها) الأكثر استجابة لتحقيق الأهداف المحددة مقدماً. فالمعنيون بفن السياسة لا يعنون بتفسير الواقع السياسى أو تحليله بقدر اهتمامهم بتصوير قواعد العمل الواجب الالتزام بها انطلاقاً من ذلك الواقع، وهم لذلك واقعيون. ومن ثم فإن جوهر اهتمام المعنيين بفن السياسة يتحدد فى السعى لتقديم أصول لفن الحكم تكفل له أقصى درجات الفاعلية، وهم لا يرون فى العلاقات السياسية (فى الداخل والخارج) أكثر من علاقات بين طرفى قوى فعلية هما : الحاكمون والمحكومون فى الداخل، وعلاقات بين عدة قوى فى الخارج، حيث يربطون عالم السياسة كله بحقيقة هى القوة وبالقوة الفعلية وحدها، فهى لديهم صلب ذلك العالم ونقطة الانطلاق لكل دراساته^(١).

ومما تقدم يعرف "فن السياسة" - فى مدلوله المعاصر - بأنه مجموعة قواعد العمل التى لو اتبعت لجاءت سياسات الحكومات (فى الداخل والخارج) أكثر فاعلية. وهذه القواعد تصور من الواقع عن طريق الممارسة، وعن طريق الخطأ والصواب، ولو التزمتهما الحكومات لجاءت سياساتها أكثر اتقاناً، فهى إذن قواعد اتقان السياسات . وتبعاً لذلك فإن المعنيين بفن أصول الحكم يعنون بمدى فاعلية الحكم ذاته أو فى معنى آخر بمدى فاعلية وسائله بالنسبة لأهدافه^(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "أفلاطون" (فى القرن الرابع قبل الميلاد) قد فطن فى كتابه "السياسة" إلى أن للسياسة فناً، فالسياسة من حيث هى فن تعنى - عنده - فن توجيه الجماعات عن غير طريق الإكراه المادى، أو بعبارة أخرى حكم

(١) انظر فى هذا الشأن : د. محمد طه بدوى، النظرية السياسية - النظرية العامة للمعرفة السياسية، المكتب

المصرى الحديث، ١٩٨٦، ص ١٣٥، ص ١٣٦، ص ٢٥١، ص ٢٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٣٦، ص ٢٥١.

الناس برضاهم، ذلك أن الحكم بالاكراه (حكم الطاغية) - عنده - ليس سياسة^(١). من هنا فإن تعريف أفلاطون للسياسة كفن لا يلتقى ومدلول "فن السياسة" المعاصر، وتبعاً لذلك لا يصح وصف "أفلاطون" بأنه مؤسس "فن السياسة".

♦ ثانياً : "فن السياسة" عند "ابن ظفر" العربي الصقلي :-

وإذ عرف الباحث بعبارة "فن السياسة" - في مدلولها المعاصر، ينتقل هنا إلى التعريف "بابن ظفر" وبظروفه الشخصية وبالظروف التاريخية التي كانت من وراء كتابته لمؤلفه "سلوان المطاع"، تمهيداً للانتقال إلى تحليل نصوص مؤلفه هذا، للوقوف على ما قدمه لفن السياسة.

- التعريف "بابن ظفر" :

هو : أبو عبد الله (وأبو هاشم) محمد بن أبي محمد بن ظَفَر^(٢) الصقلي المنعوت بحجة الإسلام برهان الدين، ولد بصقلية سنة ٤٩٧ هـ، وقدم مصر في صباه، ورحل إلى إفريقية، وقصد المهديّة (بتونس) وأقام بها مدة إلى أن استولى عليها النورمانديون سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) فانتقل إلى صقلية، لكنه لم يستقر بها فعاد إلى مصر، ورحل منها إلى حلب (بسوريا)، وفيها أقام بمدرسة "ابن عصرون" إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة ونهبت معظم كتبه فيما نسب، وخرج من حلب إلى حماة (بسوريا أيضاً) وفيها صادف قبولاً فسكن بها، وأجرى له راتب من ديوانها^(٣)، ولكنه راتب دون الكفاف، وتوفي بها سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩م).

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٧١.

(٢) والظَفَرُ (بالفتح) هو المصدر من ظَفَرَ بالشئ يَظْفِرُ ظَفْراً إذا فاز به، فالظفر هو الفوز بالمطلوب، ويقال رجل مُظَفَّرٌ: أي لا يحاول أمراً إلا فاز به. انظر : لسان العرب لابن منظور، دار احياء التراث العربي بيروت، ج ٢، ص ٢٥٤، ص ٢٥٥.

(٣) وذلك في عصر نور الدين محمود، وبعد وفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م)، انقسمت أملاكه بين أبنائه، فتولى نور الدين محمود مدينة "حلب"، وتولى سيف الدين غازي الموصل وبلاد الجزيرة، وتوفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣م). انظر في هذا الشأن: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (تاريخ الدولة الأتابكية) من ص ١٥٧ إلى ص ١٥٩.

ولقد ابتلى "ابن ظفر" في حياته فصير وعاش فقيراً، ومات فقيراً^(١)، ولكنه وهو الحجة والمفسر واللغوى والنحوى والأديب والشاعر - قد ترك كنوزاً عرفت قيمتها بعد وفاته بلغت أكثر من ثلاثين مؤلفاً، منها كتاب "ينبوع الحياة" وهو في تفسير القرآن الكريم (في اثني عشر مجلداً: بعضها موجود في كل من برلين وباريس وتركيا والقاهرة، وكتاب "خير البشر بخير البشر" وهو كتاب يضم البشريات التي وردت في الكتب السماوية السابقة والتي تحدث فيها العلماء والأخبار والكهان عن النبي (ص)، وكتاب "المسنى (أى المسهل) في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس"، وكتاب الاشتراك في اللغوى والاستنباط المعنوى، وكتاب القواعد والبيان في النحو، وكتاب المطول في شرح مقامات الحريري، وكتب في النصائح والحكمة : ككتاب "أنباء نجباء الأبناء" الذى تحدث فيه عن طفولة الأعلام الذين منحوا مؤهلات النجابة والسيادة من صغرهم وعلى رأسهم محمد (ص)، إلى جانب عشرة من الصحابة (كأبى بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، والحسن والحسين ولداً على، وعمرو بن

(١) ذكر الصفدى والذهبي وابن خلكان أنه لم يزل يكابد الفقر إلى أن مات، وزوج ابنته من الضرورة بغير كفة فسافر (بها الزوج) وباعها في البلاد، كما ذكروا كذلك أنه كان قصير القامة ذميم الخلقة إلا أنه صبيح الوجه (وستأتى الإشارة إلى مراجع الصفدى والذهبي وابن خلكان في نهاية الحديث عن سيرة "ابن ظفر").

العاص..) وعدد من التابعين، وعدد من ملوك العرب في الجاهلية وملوك الفرس حين كانوا أطفالاً. ومن كتب النصائح كذلك: كتاب "سلوان المطاوع"^(١).
- التعريف بكتاب "سلوان المطاوع":

وهو كتاب في نصيح الملوك والأمراء، معنون بـ "سلوان المطاوع في عدوان الأتباع"، ومعروف أيضاً باسم "السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات"، والكتاب في جملة مجموعة نصائح (قواعد)، وعلى نحو تسمية "ابن ظفر": لها "سلوانات"^(٢)، للمطاع (أى للأمير) لكي تكون مرشداً له عند الشدائد (في حالة تعرضه في الداخل لعدوان الأتباع - أى المحكومين، أو لعدوان من الخارج من جانب الملوك والأمراء الآخرين). ولقد ألفه "ابن ظفر" على صورتين: الأولى سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠م) في شكل رسومات مصحوبة بتعليقات ونصائح

^(١) راجع بشأن ماتقدم من سيرة "ابن ظفر" وبصدد مؤلفاته مايلي: كتاب الوافي بالوفيات لصالح الدين خليل بن أبيك الصفدي، طبعة سنة ١٩٦٢، ج٢، ص١٤١، و ص١٤٢. وكتاب وفيات الأعيان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، طبعة دار الثقافة ببيروت، ج٤، من ص٣٩٥ إلى ص٣٩٧. وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان (النسخة العربية)، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧، ج٢، من ص ١٦٠ إلى ص ١٦٢. ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مطبعة التراثي بدمشق، ١٩٦٠، ج١٠، ص٢٤١، ص٢٤٢. وكتاب بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، مطبعة الخلي، ج١، ص١٤٢، و ص١٤٣. وكتاب سر أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمود بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة ببيروت، ١٩٨٥، ج٢، ص ٥٢٢، و ص٥٢٣. ومقدمة كتاب: أنباء نجباء الأبناء "لابن ظفر" تحقيق إبراهيم يونس، دار الصحوة بالقاهرة، ١٩٩١، من ص ١٢ إلى ص ١٥. والمكتبة العربية الصقلية للمستشرق ميخائيل عمارة، طبعة مكتبة المثنى ببغداد (إعادة لطبعة ليبسك ١٨٥٧م)، من ص ٦٦٥ إلى ص ٦٦٧. وراجع بشأن مؤلفات "ابن ظفر" (أكثر من ثلاثين مؤلفاً) بصفة خاصة:-

- Solwan el mota, 'di Ibn Zafer, versione Italiana di Michele Amari, OR. at., introduzione: p p. XXXIII - XXXVIII.

^(٢) و"السُّلوان" من سلا: سلاه وسلاه عنه، وسَلَّانٌ من همٍّ تسليّةٍ وأسلاقٍ - أى كشف عني، والسلوانة حُرْزة تقول العرب عنها إنما تسحق ويشرب ماؤها فيورث شاربها سلوة. أنظر لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج٦، ص٣٥١، ص٣٥٢. وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظة "salve" الإنجليزية مأخوذة عن لفظة "سلا" العربية، بنفس المعنى، حيث تعني كل ما يُلطف أو يسكن أو ينقذ من الغرق.

مختصرة^(١)، والثانية سنة ٥٥٤هـ، (١١٥٩م) وهى التى ألفها لأبى عبد الله بن أبى القاسم على القرشى، قائد صقلية، وهى النسخة التى توسع فيها "ابن ظفر" فى نصائحه مدلاً عليها بأحداث تاريخية كثيرة، إلى جانب التدليل على صحة نصائحه تلك بآيات قرآنية وأحاديث نبوية، بالإضافة إلى منشور الحكم، والشعر، كما ذيل تلك النصائح فى بعض الأحيان بقصص عن الحيوانات وذلك حينما تحدث عن الأخلاق الذميمة حيث أعطى عليها أمثلة من سلوك الحيوانات من باب التورية، كما صاحب تلك النصائح برسومات أيضاً على نحو ما فعل فى النسخة (الصورة) الأولى من كتابه^(٢)

والكتاب قصره "ابن ظفر". بمقدمة أعلن فيها أن هذا الكتاب هدية منه إلى قائد صقلية أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم على القرشى، حيث قال: "ولما

^(١) وهذه النسخة موجودة بالمتحف البريطانى ١٥٣٠ : ١ ، جوتا ٢٦٨٨، pet. Ros wolfenb. (بطرسرج خامس) ١٢١، ٤٣ . والنسخة التى بين يدى الباحث منها هى النسخة المترجمة إلى الفرنسية انظر: - Arie', Rachel, Miniatures hispono - musulmanes, recherches sur un manuscript arabe illustre de L'Escorial, Leiden, E.J. Brill, 1969. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه النسخة (الصورة الأولى من كتاب السلوان) قد جاءت على غط كتاب كلية ودمنة.

^(٢) وهذه المخطوطة طبعت بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ، وبترنس سنة ١٢٧٩هـ، ببيروت سنة ١٣٠٠هـ، وترجمها إلى التركية قرة خليل أفندى زادة وطبعت هذه الترجمة فى إستانبول سنة ١٢٨٥هـ، والمخطوطة موجودة فى : برلين ٨٧٥٠ - ٨٧٥١، وليزج أول ٣٩٧، ٣٩٧، وليدن ٥٣٧-٥٤٠، وبباريس أول ٦٥١٢، ٦٥٦٧، والمتحف البريطانى ثان ١١٦٠، والإسكوريال ثان ٥٢٨ (مصورة)، والجزائر أول ١٨٥٤، وتونس - الزيتونة ٢٥١/٣ : ١٧٢، ودمشق العمومية ٨٦ : ٢٨، والموصل ١٦٥، ٤، ٢١، وظهران ٢٨٦/٢، والقاهرة ثان ١٨٨/٣. كما ترجم الكتاب إلى الإيطالية بواسطة ميخائيل عمارى-كملة تقدم، والنسخة الإيطالية التى بين يدى الباحث هى:-

- Solwan el mota, ossia conforti politici, di Ibn zafer, (arabo siciliano del XII secolo) versione Italiana di Michele Amori, op.cit.

كما نقلت هذه الترجمة (الإيطالية) لكتاب "ابن ظفر" إلى الإنجليزية، والنسخة الإنجليزية التى بين يدى الباحث هى:-

- Solwan or waiters of comfort by Ibn Zafer, (a sicilian arab of the twelfth century) from the original manuscript by Michele Amari and Rendered in English (in two volumes), London, 1852.

، النسخة العربية التى بين يدى الباحث (مصورة) هى المخطوطة التى طبعت بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ، ، تلك النسخة التى حررها وراجعها على النسخ الخطية وقدم لها : أبو نعمة أحمد بن عبد المجيد، طبعة دار ... : القاهرة، ١٩٧٨.

كانت الهدايا تزرع الحب وتضاعفه.. أحبت أن أهدي له هدية فائقة.. فلم أجد .. إلا العلم الذى شغفه حبا، والحكمة التى لم يزل بها صبا..^(١)، والكتاب يحوى خمس سلوانات: الأولى فى التفويض ونتائجه، والثانية فى التأسى وفوائده، والثالثة فى الصبر وعوائده، والرابعة فى الرضا وفوائده، والخامسة فى الزهد وعواقبه، وكل سلوانة من هذه السلوانات الخمس تتضمن عدة نصائح كذلك للأمر فى سياساته سواء الداخلية أو الخارجية. والكتاب فى جملة مجموعة قواعد فى فن أصول الحكم.

— التعريف بالقائد الذى أهدي إليه "ابن ظفر" كتابه :

وهو (كما تقدم) أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم على القرشى، والمعروف "بابن حمود"، وكذلك "بابن حجر"، وهو زعيم المسلمين بجزيرة صقلية آنذاك، وكان يلقب بقائد صقلية (أو القائد)، وهو من أهل بيت بالجزيرة توارثوا السيادة كائناً عن كائناً، وكان من الأغنياء ذوى الإقطاعيات الواسعة، وكان له ولاخوته وأهل بيته فى "بلرم" (بالرمو) قصور مشيدة أنيقة، وشهد له بالعمل الصالح من افتكاك الأسارى وبث الصدقات فى الغرباء، حتى كان المسلمون منحرفين عن ملك صقلية آنذاك "غليام الثانى" بتأثير نفوذ "ابن حمود" الذى كان يوزع الأموال على الناس لعله يميلهم وخاصة عن القائد المنافس له فى زعامة المسلمين بالجزيرة وهو القائد "صديق" من أغنياء المسلمين كذلك. ولقد كان "ابن حمود"، رجلاً طموحاً يريد الزعامة، وكان ذا أطماع بعيدة، يحلم بعودة جزيرة صقلية إلى حوزة المسلمين، ويعمل لذلك، حتى أنه اتصل بسلطان الموحدين وأرسل إليه كتاباً يحثه فيه على استرداد الجزيرة^(٢)، ولعل هذا التدبير قد استغله

^(١) المرجع السابق، ص ١٦.

^(٢) وذلك بعد أن استرد الموحدون (حكام المغرب) سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م) المهديّة من أيدي النورمان الذين احتلوها سنة ٥٤٣هـ ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس - فبعد أن هزم الموحدون (ق) عهد سلطانهم عبد المؤمن بن على : ٥٢٤ - ٥٥٨هـ، ١١٣٠-١١٦٣م) النورمان اجلوه عن الساحل الإفريقى. انظر فى هذا الشأن : د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٨، ج ٤، من ص ٢١٩ إلى ص ٢٢٢. و د. أحمد شلى، التاريخ الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦، من ص ١٨٤ إلى ص ١٨٩.

أعداؤه فوشوا به إلى ملك صقلية "غليام الثاني"، فغضب عليه وصادر أمواله، وتخلّى "ابن حمود" تبعاً لذلك عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه، حتى بقى دون مال، وفيما بعد عفا عنه "غليام الثاني"، وأخذ ينفذه فى بعض أشغاله السلطانية نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله، وقد كان "ابن حمود" صاحب ديوان فى "بلرم" وصاحب قلم يذّبر الأقاليم^(١).

- الظروف التاريخية التى عاصرها "ابن ظفر":

ويعرض الباحث هنا للظروف التاريخية لجزيرة صقلية، التى ولد بها "ابن ظفر" وعاد إليها وقت كتابته مؤلفه "سلوان المطاع" فى صورته الأخيرة. وبادئ ذى بدء يشير الباحث إلى أن جزيرة "صقلية" من جزر البحر الأبيض المتوسط، وتمتّع بموقع جغرافى هام بين ساحل إيطاليا الجنوبي الذى لا يفصله عنها سوى مضيق "مسينا" شمالاً، وبين الساحل التونسى القريب منها جنوباً، وتجدد الإشارة هنا إلى أن الغزو الحقيقى لجزيرة صقلية من جانب المسلمين قد بدأ فى عهد الخليفة العباسى "المأمون بن هارون الرشيد"، وقام به الأغالبة (حكام أفريقيا من قبل الخلافة العباسية) فى وقت كانت فيه صقلية تحت سيادة الإمبراطورية البيزنطية، ولقد بدأ الغزو سنة ٢١٢ هـ^(٢) إلى أن سقطت الجزيرة كلها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٢م)^(٣)، (كما استولى الأغالبة كذلك على جزيرة "مالطا" سنة ٨٦٩م) ثم عبروا مضيق "مسينا" وغزوا رقلورية (كلايريا) فى جنوب إيطاليا،

^(١) والأقاليم اصطلاح كان جارياً آنذاك فى صقلية على الأقسام العسكرية. راجع بشأن مجاء عن التساند الصقلى "ابن حمود": د. إحسان عباس، العرب فى صقلية، دار الثقافة ببيروت، ١٩٧٥، ص ١٥١، و ص ١٥٢، ومن ص ٢٨٩، إلى ص ٢٩١. وكذلك: رحلة "ابن جبّار" (أبو الحسين محمد بن أحمد بن حيدر الكتانى الأندلسى) دار بيروت ودار صادر (بيروت)، ١٩٦٤، ص ٣١٤.

^(٢) فى عهد زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب، وبقيادة قاضى القيروان أسد بن الفرات، انظر فى هذا الصدد: د. حسن أحمد محمود، د. أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، دار الفكر العربى، ١٩٦٦، ص ٤١٧.

^(٣) ولقد استغرق الغزو مايقرب من الثمانين سنة نتيجة لمناعة الجزيرة ووعورة مسالكها، ولأنه كان من المهمّات الإمبراطورية البيزنطية تمدها بالمال والرجال. انظر فى هذا الشأن: أحمد مختار العبادى، فى التاريخ الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية، ١٩٨٢، ص ٣٣٦.

العربي الإسلامي، نجح النورمان (النورمانديون) حكام جنوب إيطاليا في الاستيلاء على صقلية من الشمال على يد الكونت روجار الأول حاكم قلورية (كلابريا) سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م)^(١)، وحينما دخل النورمان صقلية تركوا للمسلمين منها أجزاء يعيشون فيها. ورغم أن روجار الأول كان نصرانياً إلا أنه اعتمد على المسلمين في حشد أكثرية المشاة في جيشه، واستعان في إدارة شئون الحكم بالموظفين المسلمين، بل إنه أسند بعض الوظائف العليا إلى المسلمين، والسبب من وراء ذلك أن النورمان كانوا أقلية ضئيلة في الجزيرة، ولا يستطيعون أن يفرضوا أنفسهم على نواحي الحياة بالجزيرة بالقوة، (كما لم تكن لهم حضارة تقف كند للحضارة الإسلامية القائمة آنذاك)، وهذا ما جعل ملوك النورمان المعاصرين للحروب الصليبية لا يشتركون فيها، كما أنهم كانوا في نقطة المركز في دائرة الأعداء، فهم في خطر من تهديد الإمبراطور الجرمانى، وأحياناً في عداوة مع البابا، وعلى مقربة منهم في الساحل الأفريقي أمراء مسلمون يضمرون لهم العداوة، ومن هنا وازن النورمان بين المصالح والفئات المتضاربة وخضعوا لاعتبارات الموقع الجغرافي^(٢).

هذا ورغم أن روجار الأول قد استعان في عهده (١٠٧٠-١١٠١م) بالمسلمين في إدارة مملكته إلا أنه شجع سياسة تنصير المسلمين، وفي عهد "غليام الأول" (١١٥٤-١١٦٦م) قام المسيحيون (وخاصة اللبارديون) بقتل وذبح المسلمين في شوارع بلرم، وفي أيام حكم "غليام الثاني" (١١٦٦-١١٨٩م) والذي كان "ابن حمود" في عهده قائداً لصقلية اشتدت دعوة تنصير المسلمين

(١) فملوك النورمان كانوا يحكمون جنوب إيطاليا إلى جانب صقلية مما تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً يعبر عليه شتى العناصر الثقافية الإسلامية إلى شبه الجزيرة الإيطالية وأوروبا الوسطى. انظر: فيليب حنن، المرجع السابق، ص ٧٢٦.

(٢) انظر: د. إحسان عباس، معجم العلماء والشعراء الصقليين، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٩٤، ص ١٣. ونفس المؤلف: العرب في صقلية، مرجع سابق، ص ١٣٧. وفيليب حنن، المرجع السابق، ص ٧١٨ إلى ص ٧٢١.

حتى وصل الأمر بالأبناء أن اتخذوا من مفارقة الدين سلاحاً يشهرونه في وجه
آبائهم إذا ما أغضبهم، وبعد "غليام الثاني" قامت معارك بين المسلمين
والمسيحيين، وهاجر كثير من المسلمين إلى إفريقيا. ولقد أخذ الوجود الإسلامي
بتضاءل في صقلية وخاصة من القرن الثالث عشر الميلادي (في عهد الإمبراطورية
الحرمانية) مع إمعان الرهبان اللاتينيين في تنصير المسلمين طوعاً أو كرهاً حتى أن
الإسلام قد اضمحل تماماً من أرض الجزيرة خلال ذلك القرن^(١).

وجملة القول هنا بصدد الظروف التاريخية التي عاصرها "ابن ظفر"
وأحاطت به وقت تأليفه كتاب "سلوان المطاع": أن مولده كان بصقلية في عهد
حكم النورمان (وبالتحديد في عهد روجار الأول)، ثم غادر "ابن ظفر" صقلية
وعاد إليها في عهد "غليام الأول" حيث ألف كتابه "سلوان المطاع" وأهداه إلى
القائد القرشي "ابن حمود" سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م)، وهي نفس السنة التي
استعاد فيها الموحدون (كما تقدم) - حكام المغرب العربي في الفترة من سنة
٥٢٤هـ إلى سنة ٦٦٨هـ (١١٣٠-١٢٦٩م). المهديّة من أيدي النورمان
(الذين استولوا عليها سنة ٥٤٣هـ - ١١٤٨م)، وذلك أملاً في عودة "صقلية"
هي الأخرى إلى حوزة المسلمين، ثم غادر "ابن ظفر" صقلية إلى مصر ورحل
منها إلى سوريا وتوفي بحماة سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م).

- تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" لابن ظفر:

ويشير الباحث منذ البداية هنا إلى أن "ابن ظفر" قد أفرد هذا الكتاب من
أدبته إلى غايته لوضع أصول لفن الحكم، حيث يقول في مقدمة كتابه: "وهو
كتاب .. عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك (أى أعيان الملوك
وأكابرهم) ببضاعتها (يعنى بمعرفتها وبقواعد ممارستها)، ومنعتهم الغيرة عليها من
إداعتها، فتوسعت بالتعبير بالفاظى عنها، والتجبير^(٢) بعلمى لها، والتفنن بقوى

١. من النص في هذا الشأن انظر: أحمد توفيق المدق، المرجع السابق، من ص ١٩٠ إلى ص ٢٠٧.

٢. د. إ. ع. س. المرجع السابق، من ص ١٤٨ إلى ص ١٥٤.

٣. وهو التحسين (الإحادة)، والخبر هو العالم بتجبير الكلام والمعرفة وتمجيها - أى إجادتها من
الغوبة. انظر: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٤، ص ١٦.

فطنى فيها، توسعاً لا يحظره شرع...^(١). وتوضح هذه النصوص التي أوردها "ابن ظفر" في مقدمة كتابه أنه وضع في مؤلفه هذا قواعد للممارسة والحكم (استأثر بها خواص الحكام)، من ثانياً مجموعة ملاحظات للواقع السياسى (أمثلة) استقرأها من التاريخ، كما أعلن "ابن ظفر" هنا أن هذه القواعد التى توسع فى عرضها والتي بدت له أنها قادرة على تحقيق سياسات للأمير أكثر قوة وفاعلية، لاتتعارض وأحكام الشريعة الإسلامية^(٢).

— القاعدة الأولى "التفويض" :

وتتمثل القاعدة الأولى فى فن أصول الحكم (وعلى نحو تسميته هو : السلوانة الأولى) فى التفويض، ويعرفه "ابن ظفر" بأنه التسليم من جانب الأمير لأحكام القدر، حيث قال: "إن حقيقة التفويض هو التسليم لأحكام الله"^(٣)، ولكن التفويض فى هذا المعنى لايعنى -عنده- الاستسلام أو التواكل من جانب الأمير فى حالة وقوع الضرر، حيث ينتقد "ابن ظفر" الأمير المستسلم والمتواكل بقوله: "إن من الدلالة على أن الإنسان مصرف مغلوب، ومدبر مربوب (أى صار عبداً أو مملوكاً للموقف)، أن يتبدل رأيه فى بعض الخطوب، ويعمى عليه الصواب المطلوب، فإذا كان ذلك، فإن تدميره فى تدميره، واغتياله فى اغتياله (أى فى تحركه من موضع إلى آخر)، وهلكته فى حركته"^(٤). وتبعاً لذلك نصح "ابن ظفر" الأمير فى حالة وقوع الضرر بأن يحسن التدبير والتصرف، وأن يُعمَل

^(١) انظر : سلوان المطاع فى عدوان الأتباع لابن ظفر، النسخة التى حررها وراجعها على النسخ الخطيصة وقدم لها أبو نحلة أحمد بن عبد المجيد، مرجع سابق، ص ١٦.

^(٢) لذلك يصف الباحث (وكما سيأتى) "ابن ظفر" ضمن المفكرين الإسلاميين السياسيين الذين يمثلون أصالة الفكر السياسى الإسلامى الذين لم يتأثروا بالفكر اليونانى من ناحية، ولم يكتبوا كتباً مدارة للحكام من ناحية أخرى.

^(٣) المرجع السابق، ص ٢١.

^(٤) المرجع السابق، ص ٢٢.

الحيلة ما استطاع حتى يحافظ على نفسه وعلى إمارته حيث قال: "وإذا كانت مغالبة القدر مستحيلة، فمن أعوان نفوذ الحيلة"^(١).

هذا ولقد راح "ابن ظفر" يستقرئ التاريخ ويعطى مثلاً للأمير يوضح به كيف يكون حُسن التدبير وإعمال الحيلة والقوة معاً في حالة وقوع الضرر، وليست القوة على إطلاقها، وهو مثال الخليفة الأموي "عبد الملك بن مروان" الذي تعرض لأضرار جمة في ذات الوقت، حينما خرج إلى مكة لقتال "عبد الله بن الزبير" واستصحب "عمرو بن سعيد بن العاص" - الطامع في الخلافة حتى يأمن غدره، ولما سار "عبد الملك" أياماً عن دمشق تمارض "عمرو بن سعيد" فاستأذن "عبد الملك" بالعودة إلى دمشق فأذن له، ولما دخل "عمرو" دمشق صعد المنبر فخطب الناس خطبة نال فيها من الخليفة "عبد الملك" ودعا الناس إلى خلعه فأجابوه إلى ذلك وبايعوه فاستولى "عمرو" بذلك على دمشق (عاصمة الخلافة الأموية) وحصن سورها وسد ثغورها، فبلغ ذلك "عبد الملك" وهو متوجسه إلى

^(١) المرجع السابق، نفس الصفحة، ولفظة أعوان جمع عون وهو الظهير على الأمر، كأن تقول: أعتنه إعانة واستعنته واستعنت به فأعاني، وتعني لفظة نفوذ: جواز الشيء، والنفذ: المخرج والمخلص، ومعنى العبارة بالإجمال: إذا كانت مغالبة القدر أمراً يستحيل على الأمير التصرف إزاءه فإن المخرج في حالة وقوع الضرر يكون في الاستعانة بالحيلة لا كأداة للاعتراض على القدر بل للمحافظة على النفس. انظر في هذا الشأن: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ٩ من ص ٤٨٤ إلى ٤٨٦، ج ١٤ من ص ٢٢٩ إلى ص ٢٣١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن لفظه "الحيلة" لا تعني كما يتبادر للذهن أنها "تكتب طرق الكذب والنفاق لخداع خصم ما"، بل على العكس من ذلك فكلمة "حيلة" في معناها الدقيق تدل على "آلة" توفر الجهد والمشاق على الإنسان، وهذا يركز على قواعد علمية تكون بمثابة مخترع حاذق وعالم عامل، والحيلة إذن هي أكثر الوسائل حذقاً ومهارة للوصول إلى الأهداف والغايات، والحيلة تبعاً لذلك هي الوسيلة الفضلى، فهي تختبر على قدر أقل من الإكراه وعلى درجة ليست قليلة من الفاعلية. ومن هنا فيلن أصحاب الحيلة ينظرون بازدراء إلى العنف وحمل السلاح وسله بمناسبة وبدون مناسبة، فلهراق الدماء أسهل الأمور لكن الحيلة تحتاج إلى مهارة خاصة كما في بعض الفنون، وهي مضمونة الربح عادة. والحيلة في سياسة الحكم والسياسة ليست مجرد لعبة ذهنية مجردة، بل هي عمل حاذق دقيق ومرهف، راجع في هذا الشأن:

- The book of arabic wisdom and guile, translated by Renner Khawam, London, 1980, P.3.

قتال "ابن زبير"، كما بلغه أن والى حمص "النعمان بن بشير"، وأمير قنسرين "زفر بن الحارث"، وأمير فلسطين "ثايل بن قيس" قد نزعوا أيديهم من الطاعة وبايعوا الناس "لابن زبير"، وأصبح "عبد الملك" في حال اضطراب، كالبحر في حال هياجه، لكنه في الموقف الذي بات فيه يفقد ملكه لم يستخدم القوة المجردة، حيث استخدم الحيلة جنباً إلى جنب مع القوة، فراجع عن قتال "ابن الزبير" على أساس أنه لم يعطه طاعة ولا وثب على ملكه، ولو قاتله لكان في صورة ظالم، وأصر على قتال "عمرو بن سعيد" الذي نكث ببيعته وأفسد رعيته وحملهم على الغدر به، لأنه في هذه الحالة سيقا تل وهو في صورة المظلوم فيكسب تبعاً لذلك عطف ودعم الرعية، ولقد أفلح "عبد الملك" واستعاد عاصمة ملكة من "عمرو ابن سعيد"، ثم تفرغ بعد ذلك لقتال "ابن الزبير" وخصومه، وتغلب عليهم، ونجح في الحفاظ على ملكه^(١).

كما لم يترك "ابن ظفر" تلك الحادثة التاريخية إلا واستخلص منها عدة نضائح للأمير، حيث قال: "إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك، وإذا طالبت بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وإن كان عظيماً..."^(٢)، وواضح من هذا النص نصيح "ابن ظفر" للأمير باستخدام القوة والمكيدة (الحيلة) معاً في سياساته إزاء أعدائه فإذا كان عدوه أضعف منه فليستخدم القوة وإذا كان أقوى منه فليستخدم الحيلة ولا يتردد في مواجهته، كما نصحه في بعض الحالات بعدم التردد في استخدام القوة كما في حالة استخدام

(١) انظر: سلوان المطاع، المرجع السابق، من ص ٢٥ إلى ص ٣٤. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "عبد الملك" بعد أن قضى على "عمرو بن سعيد"، قاد بنفسه معركة العراق ضد "مصعب بن الزبير" الذي ولى البصرة من جانب أخيه "عبد الله" وانتصر فيها "عبد الملك" وقتل مصعب، وحينما لم يبق أمام "عبد الملك" إلا الحجاز بقيادة "عبد الله بن الزبير" أرسل إليه قائده الحجاج الذي حاصر مكة ورمها بالمخانيق، واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن "ابن الزبير"، وانتصر الحجاج قائد جيوش "عبد الملك" وقتل "عبد الله ابن الزبير". راجع في هذا الشأن: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ٢١٦ وص ٢٢١. ود. أحمد شلي، المرجع السابق، ج ٢، من ص ٥٤ إلى ص ٥٧.

(٢) انظر: سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٢٩.

"عبد الملك" للقوة مع "عمرو بن سعيد" حيث قال "ابن ظفر" في مثل هذه الحالة "إذا كانت الإساءة طبعاً، لم يملك لها الإحسان دفعاً"^(١)، وقوله: "اللثيم كالنار إكرامها، إضرارها"^(٢).

ولقد نصح "ابن ظفر" الأمير إن كان في موقف كموقف الخليفة "عبد الملك" المتقدم، بعدم التردد أو هيب العدو وإلا فيسقط ملكه، حيث ذكر أن "عبد الملك" وهو في شدة تأزم موقفه استشار وزراءه الذين ذهلت عقولهم (من شدة الموقف) وعلموا أن لا مقر ولا مفر فتكسوا روسهم ولم ينطقوا، فقال لهم "عبد الملك" مالكم لا تنطقون، فقال له أحدهم: "وددت والله أني كنت حرباء على عود من أعواد تمامة حتى تنقضي هذه الفتن"^(٣)، ففى نفس الوقت الذى ظهرت فيه صلابه "عبد الملك" عند الشدائد ظهر فيه نخاذل وزرائه عند ملاقاتهم عدوهم. وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير بقوله: "من هيب عدوه فقد جيش إلى نفسه جيشاً"^(٤) أى من تردد وتخوف من لقاء عدوه فقد هُزم قبل أن يقاتله عدوه.

كما نصح "ابن ظفر" الأمير في حالة استخدام القوة والحيلة معاً أو في حالة تغليب القوة على الحيلة، بأن يحسن التدبير والتصرف في سياساته تلك انطلاقاً من حقائق الواقع فلا مجال للخطأ أو التهور وإلا ضاع الملك، حيث قال: "إن تدبير السموعات مؤسس على ظنون الخبر، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر"^(٥)، وقوله أيضاً: "العاقل يقدم التجريب على التقريب، والاختبار على الاختيار، والثقة على المهة"^(٦)، وقوله كذلك: "احترس من تدبيرك على عدوك

^(١) المرجع السابق، ص ٣٢.

^(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

^(٣) أى بمعنى أن يكون حرباء لا ترى فراراً من تلك الفتن. انظر المرجع السابق، ص ٢٦.

^(٤) المرجع السابق، ص ٢٩.

^(٥) المرجع السابق، ص ٣٠.

^(٦) المرجع السابق، ص ٣٢، والفتة مصدر قولك وثَّقَ به يثق، والثيق: الشئ المحكم، ويقال أخذ بالوثيقة في أمره في معنى بالإحكام في أمره، وذلك على عكس الأمتة من الناس: الذى يركب رأسه لا يبرى أبسن يتوجه. انظر: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ١٣ ص ١٥٨، ج ١٥ ص ٢١٢ و ٢١٣.

وفى معنى آخر: نصح "ابن ظفر" الأمير بأن يأخذ بالأمر الأشد المحكم (الثقة) لئلا المشكلة التى يواجهها ويقدمه على رأى أهل محبته وصحبته (المهة)، والذى قد يجاوبه الصواب، وذلك تبعاً لكون المقام (مق) تعنى هنا المحبة. انظر فى هذا الشأن: المرجع السابق، ج ١٠، ص ٣٧٢، و ص ٣٨٥.

كاحتراسك من تدبيره عليك، فرب هالك بما دبر ومكر، وساقط في البئر الذى احتفر، وجريح بالسلاح الذى شهر^(١)". وتظهر هذه النصوص واقعية "ابن ظفر" حيث نصح الأمير وهو في تدبيره لسياساته المتقدمة أن يركز على التجربة المستقاة من الواقع، وليس على الظنون والتصورات غير الواقعية.

هذا ولم يترك "ابن ظفر" الاحتمال الثالث في سياسات الأمير في حالة وقوع الضرر، وهو تغليب الحيلة على القوة (بعد أن تكلم عن استخدام القوة والحيلة معاً، وتغليب القوة على الحيلة)، حيث ضرب مثلاً في هذا الصدد، وهو مثال "المأمون" وأخيه "الأمين" (الخليفة آنذاك) وكان "المأمون" ولى عهده، ومقيماً بخراسان، حيث عزم الخليفة "محمد الأمين" على إخراج عهد الخلافة عن أخيه (عبد الله المأمون) ونقله إلى ولده "موسى"، فكتب "الأمين" إلى "المأمون" كتاباً يذكر فيه حاجته إلى لقائه ومفاوضته في أمر جسيم ويسأله أن يستتيب بخراسان من يضبطها حتى يخرج منها فيسهل خلعه من ولاية العهد، ولما فطن "المأمون" لذلك امتنع عن الخروج بخراسان، فبئس "الأمين" من تمام مكيدته "للمأمون" فأمر بالقبض على من ببغداد من حشم المأمون وحرمه وبطانته وماظهر عليه من أمواله، ودعا الناس إلى البيعة لابنه "موسى" فأجابوه، واستكفل "للمأمون" "على بن عيسى بن ماهان"، وكان "على" هذا قد ولى خراسان قبل ذلك مدة طويلة، وكان شأنه بها عظيماً فاستشاره "الأمين" في أمر خراسان فضمن له أمرها وأخبره أنه لو بلغ خراسان لم يختلف عليه اثنان، فجهزه "الأمين" إليها وولاه كل بلد يغلب عليها وأعطاه أموالاً جزيلة، وبلغ ذلك "المأمون"، وعلم عجزه عن مقاومة "على بن عيسى"، فأعمل الحيلة، ورفض استخدام القوة، كما رفض اقتراحاً بالانحياز إلى ملك الترك حتى لا يجعل للترك (آنذاك)

(١) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٣٣.

على حرب المسلمين سبيلاً، وصبر على فعل أخيه رغم نقضه للعهد فأُنجح الله عمله، وبلغه من الخلافة أمله^(١).

وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير بقوله: "إنه ينبغي للعاقل إذا دهمه ما لا قبل له به أن يلزم نفسه التسليم لحكم قاسم الحظوظ ولا يضيع من ذلك نصيبه من الدفاع بحسب طاقته، فإنه إن لم يحصل على الظفر حصل على العذر"^(٢)، وواضح من هذا النص دعوة "ابن ظفر" للأمير في حالة أن يداهم ما لا قبل له به أن يغلب الحيلة على استخدام القوة، وأن يقرن ذلك بكونه في موقف الدفوع لا الهجوم فإن لم ينتصر حصل على العذر، لأنه ليس البادئ بالعدو.

وجملة القول بشأن القاعدة (السلوانة) الأولى وهي التفويض، أنه في حالة تعرض الأمير لوقوع الضرر نصحه "ابن ظفر" بالتعامل مع هذا الضرر انطلاقاً من التسليم لأحكام القدر من ناحية، ومن أن الحكم دائم العقبات من ناحية أخرى، كما نصح "ابن ظفر" الأمير بأن يقيم سياساته مع أعدائه على حسن التدبير المرتكز إلى حقائق الواقع، باستخدام القوة والحيلة معاً في بعض المواقف، أو تغليب القوة أو الحيلة في مواقف أخرى حسب ما يميله الموقف، وكل ذلك بهدف المحافظة على الحكم، وواضح من كل ما تقدم في هذا الشأن إشارة "ابن ظفر" إلى "النسبية" في تدبير أمور الحكم حيث لا يؤمن بالأحكام المطلقة على الواقع ولا بالتسليم المطلق للأحداث، ولا بالاستخدام المطلق كذلك للقوة في كل الحالات. وهو بهذا كله يدعو الأمير القرشي "ابن حمود" إلى تغليب الحيلة في التعامل مع ملك صقلية، ومع منافسيه على زعامة مسلمي صقلية، والعمل على

(١) نفس المرجع السابق، من ص ٣٥ إلى ص ٤٦. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الحادثة التي ذكرها "ابن ظفر" كانت قبل أن يأخذ المأمون قراره بقتال جيش الأمين، لأنه بعد ذلك حينما تيقن بأنه لا مفر من القتال، دارت بين جيشيهما معارك حربية طويلة قتل فيها "علي بن عيسى"، وسقط في نهايتها الأمين سنة ١٩٨هـ، وتولى المأمون الخلافة عقب ذلك، انظر في هذا الشأن: ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩، ج ٣، ص ٢٤٢، و د. أحمد شلبي، المرجع السابق، ص ١٠٢ و ص ١٠٣.

(٢) سلوان الطاع، المرجع السابق، ص ٤٠.

عودة الجزيرة للمسلمين، أو على الأقل أن يحافظ الأمير القرشي على وضعه ونفوذه بالجزيرة. ولعل "ابن ظفر" بذلك كله قد أوضح أسباب فقد صقلية نتيجة عدم الأخذ بأسباب الدفاع عنها أو المحافظة عليها من استخدام لوسيلتي القوة والحيلة مع حسن التدبير المستند إلى حقائق الواقع.

– القاعدة الثانية "التأسي" :

ولقد أوضح "ابن ظفر" مايقصده بالتأسي بقوله: "والأسى: هو الحزن، ولا يعجبني هذا، وهو عندي مأخوذ من قولهم: أسوت الجرح والجريح - أى داويت، والآسى: هو الطبيب المداوى، فكان معنى التأسي: التطب والتداوى بالصبر، والأسوة: اسم من هذا، والتأسي: تفعل من الأسوة"^(١). وهنا نصح "ابن ظفر" الأمير في حالة ضياع ملكه ألا يقف موقف الذهول وألا يتقاعس عن محاولة استرداده، حيث قال: "ينبغي ألا يذهل"^(٢) (الأمير) عن حظوظ جنسه منها ودولتهم فيها، فإذا زالت عنه وصارت إليهم لم ينكرهم أخذهم انصباءهم وتقاضيههم حظوظهم، وليتأس بصبرهم عند حوزة لها دولتهم فيصبر لدولتهم الخالفة، كما صبروا لدولته السالفة"^(٣). كما نصح "ابن ظفر" الأمير في هذه الحالة كذلك بأن يحافظ على نفسه ووضعه حتى لا يفقد كل شئ بقوله: "تعز واصبر واذكر مصائب الناس فتأس بهم ولا تذهل عن النعمة العظمى في حفظ نفسك"^(٤). وتأكيداً لهذا المعنى من التأسي والمحافظة على النفس ضرب "ابن ظفر" مثلاً "لسابور بن هرمز" ملك الفرس، و"قيصر" ملك الروم، حيث ذكر "ابن ظفر" أن "سابور" اعتزم على الدخول إلى بلاد الروم متكرراً متحسناً (رغم نصيحة وزرائه له بعدم الإقدام على ذلك)، ولما صنع "قيصر" وليمة حشر إليها الناس على طبقاتهم، حضرها "سابور"، ولما دخل "سابور" دار "قيصر" فطن إليه

(١) المرجع السابق، ص ٤٨.

(٢) ومعنى يذهل - أى يترك الشئ أو يتناساه عن عمد أو يشغله عنه شغل. انظر في هذا الشأن: لسان

العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ٥ ص ٦٨.

(٣) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٤٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٤.

رجل من دهاة الروم، وأخبر "قيصر" بذلك، فأمر "قيصر" بالقبض على "سابور" وبقتله ليرعبه بذلك، ولما اعترف "سابور" بحقيقة أمره، أبقي "قيصر" على حياته وحبسه، وعزم على غزو بلاد الفرس، فسار بجنوده إليها، واقسم على إخراجها معه "سابور" محبوساً، لعلمه أنه لادافع يدفعه عنهم، فلما بلغ فارس أكثر فيها القتل والسبي وتغویر المياه وقطع الشجر وإخرااب القرى والحصون حتى بلغ مدينة "سابور" وقرارة ملكه، ولم يكن عند من بها من عظماء الفرس حيلة في دفعه بأكثر من ضبط الأسوار والقتال عليها، ولما تحايل "سابور" وتخلص من حبسه وأسره، قصد مدينة ملكه، فقويت نفوس الفرس بسلامة ملكهم، وأخذوا أهبتهم، ولم يكن الروم متأهين لعلهم بضعف الفرس عن مقاومتهم بعد أسر ملكهم، حتى دهم "سابور" الروم وأخذ "قيصر" أسيراً وغنم خزائنه، ولم ينبج من جنود "قيصر" إلا الشريد، وأبقى "سابور" على حياة "قيصر" كما فعل معه من قبل وأطلقه بشرط إصلاح ما أفسده^(١). وبهذا المثل أوضح "ابن ظفر" أنه في حالة ضياع الملك لاذهول ولا تقاعس بل ثبات وصبر ثم انتهاز للفرص لعودة الملك، مع المحافظة على النفس لحين تحقيق ذلك، وهو بهذا يضع سبباً آخر في ضياع صقلية وهو التقاعس والذهول الذي لحق بالمسلمين وعدم الأخذ بأسباب المحافظة عليها، حيث أكد "ابن ظفر" على ذلك المعنى بقوله: "ثلاثة من لم ينزلها منزلتها ويرع لها حقها أسرع في مفارقتها والتحول عن قربها وهي: الملك والعلماء والنعم"^(٢).

وجملة القول بشأن قاعدة "التأسي"، أن "ابن ظفر" نصح الأمير في حالة ضياع ملكه أن يتأسي من ذلك الوضع ويصبر كما صبر الذين أخذوا منه الملك حينما كان هو صاحبه، وألا يتقاعس في الأخذ بأسباب عودة الملك إليه، وأن الحد الأدنى المطلوب منه هنا هو المحافظة على نفسه ووضعه ونفوذه لحين تحقيق ذلك الهدف، وإلا فقد كل شيء.

(١) المرجع السابق، من ص ٥٠ إلى ص ٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٦.

- القاعدة الثالثة "الصبر":

وعن قاعدة الصبر قال "ابن ظفر": "وهو (أى الصبر) ثمرة التأسي^(١)"، وقال أيضاً: "ومعنى الصبر الثبات"^(٢)، ونصح الأمير بالصبر في حالة تألب المبتطلين عليه، وتوجيه المكر والمكره إليه^(٣). ومن نصائحه في الصبر: "الظفر يعشق الصبر، فاصبر تظفر"^(٤)، وقوله كذلك: "وإن أقل فوائد الصبر على البلية أن الصبر عليها (من جانب الأمير) ينغص لذة عدوه المتشفى الشامت به"^(٥).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أهم ماجاء من نصائح في إطار قاعدة الصبر، نصائح أو إن شئنا قواعد في فن الحكم بشأن التعامل مع المحكومين، وبصفة خاصة في حالة تمردهم وفسادهم، حيث حدد "ابن ظفر" ما ينبغي أن يكون عليه سلوك الأمير في هذا الشأن، في شقين: شق وقائي وآخر علاجي.

أما عن الشق الوقائي (قبل وقوع التمرد)، فقد نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع قواعد معينة في علاقته بالمحكومين حتى لا يقع منهم التمرد مستقبلاً، وتمثل هذه القواعد فيما يلي:-

أولاً: أن الحد الأدنى المطلوب من الحاكم هو المحافظة على الملك كما تسلمه، وذلك من ثنایا الابقاء على الحد الأدنى من الحقوق التي كانت للمحكومين قبل تسلمه الحكم، وإلا تمرد عليه المحكومون، مما يؤدي إلى زعزعة ملكه أو فقده حيث قال: "ينبغي لمن تغلب على ملك وغصبه.. أن يحفظ

(١) المرجع السابق، ص ٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٥. وتجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة "الصبر" لا تفسر على أنها قبول تحمل المحن والمظالم باستسلام كامل، فهي تشير إلى غير ذلك تماماً، فهي ليست سوى "المثابرة على المهدف والعمل المستمر للوصول إلى المهدف المحدد". انظر:-

-The book of arabic wisdom and guile, translated by Rener Khawam, Op.,cit., P.3.

(٣) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٧٣.

(٤) المرجع السابق ص ٧٥.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

الصورة والشريطة التي تسلم عليها تلك المملكة فإنها محفوظة عليه وثابتة في عقد تسلم تلك المملكة له ولافتخرج من يديه بمثل ماصارت إليه^(١)."

ثانياً: عليه أن يتصدى لتذمر المحكومين بالقول، وألا ينتظر حتى يحدث التمرد من جانب المحكومين بالفعل، ذلك أن تجاهل تذمر المحكومين بالكلام هو البداية الحقيقية لحدوث تذرهمهم بالفعل، حيث قال "ابن ظفر" هنا: "أيدى الرعية تبع لألستها، فإذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تصول"^(٢)، وقوله كذلك: "ترك نكير الصغائر مدعاة إلى الكبائر"^(٣)، كما راح "ابن ظفر" هنا يوضح سبل تصدى الأمير لتذمر المحكومين بالقول بقوله: "عليك بالصبر وكف الأذى وبسط العدل والإحسان وتأمين السبل وإجارة المستجير وتأليف المستوحشين والأخذ بالفضل والعفو"^(٤).

ثالثاً: عدم إعمال اللين الزائد مع المحكومين، وإلا حدث للأمير مثلما حدث للخليفة "عثمان بن عفان" (رضى الله عنه) حيث ذكر "ابن ظفر": أن الخليفة "عثمان بن عفان" قال لجلسائه وهو محصور في الفتنة: "وددت لو أن رجلاً صادقاً أخبرني عن نفسي وعن هؤلاء" - يعني الذين حصروه. فقال رجل من الأنصار: "أنا أخبرك يا أمير المؤمنين، إنك تطأطأت (أي قللت لهم من قدرك) لهم فركبوك، وتحادعت (يعني تظاهرت لهم بأنك مخدوع) لهم فسلبوك، وما جرأهم على ظلمك إلا إفراط حلمك. قال: صدقت. ثم قال له: "أتعلم أو هل لك علم بما يثير الفتن؟ قال: "نعم يا أمير المؤمنين، إن الفتنة يثيرها أمران أحدهما الأثره تضغن الحامة (يعني اختصاص بعض الخاصة للشئ دون غيرهم

(١) المرجع السابق، ص ٩٦ وص ٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٦. وتصول من صول، والصؤول هو الذي يتناول على الناس ويضرهم. انظر: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ٧، ص ٤٤٤.

(٣) سلوان الطاع، المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، ص ٩٦، كما ذكر "ابن ظفر" في نفس الصفحة أن الأمير إذا اتخذ هذه الحلال شرعاً يدين به، زادت سمعته حسناً والقلوب إليه ميلاً والألسنة له شكراً.

فتثير الحقد عليهم)، والثاني حلم يجرى العامة .. وإذا استحكمت الفتنة فليس لها إلا الأزم " (يعني الصبر)^(١).

أما عن الشق العلاجي: (بعد وقوع التمرد)، فإن "ابن ظفر" قد نصح الأمير بأمرين في معالجته لتمرد وفساد الرعية:

أولهما: عدم استخدام العنف (القسوة) في حالة تمرد المحكومين وإلا فقد ملكه، حيث قال "ابن ظفر": "هناك أمور من استقبالها بالعنف والردع هلك بها، الملك في حال غضبه، والسيل في حال صدمته، والعامة في حال هيجها ومرجها"^(٢)، وقوله أيضاً: "إن أشبه شيء بردع العامة عند تنمرها وهيجها معاناة الجدرى في حالة انبعائه إلى سطح الجسد بالأظلية الرادعة"^(٣)، وقوله كذلك: "قد تخرج الرعية بعنف السياسة إلى مالا تريد من المعصية"^(٤).

ثانيهما: عدم التمييز بين من هو معه ومن هو ضده وبين من هو مرتاب، لاتخاذ ما يلزم حيالهم من التدبير، حيث قال "ابن ظفر": "البحث (في مثل هذه الظروف) خطر عظيم لأنه يوحش المريب فيحركه إلى اللحاق بعدوك، وإذا التحق مع عدوك قاتل معه على بصيرة ليست لعدوك، وبذل جهده في العود إلى وطنه وأهله وماله، وعدوك لا يقاتلك على مثل ذلك. وربما لم ينفصل عنك المريب بل يعاديك بموضعه ويكاشفك ويتكثر عليك بشكليه من الرعية فينصره، والعامي لا ينظر إلى الملك من حيث تحققه في الخلق الإنساني، بل ينظر إليه من

(١) المرجع السابق، ص ٩٨، ص ٩٩، والحامة يعني الخاصة.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة، والأظلية من طلي، والطلاء كل ما طليت به بالدهن وغيره. انظر لسان

العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ٨ ص ١٩٤ و ص ١٩٧.

(٤) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٩٦. ولعل هذه النصيحة مأخوذة من قوله "معاوية بن أبي سفيان":

"إن لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لسان، ولو أن يسئ وبين الناس شعرة ما انقطعت، كانوا إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها. انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٩.

حيث خصيص تفردته وأنفته وعلو همته فينافره لذلك ويألف العامي الذي يشاكره في الأخلاق بعلّة المشاكلة"^(١)، كما نصح "ابن ظفر" الأمير كذلك بألا يكشف المحكومين بالامتحان في مثل هذه الظروف (ادبار الملك) وإلا فخسارهم محققة"^(٢).

هذا ولقد راح "ابن ظفر" يصور خاصية "الصبر" التي يجب أن يتحلى بها الأمير، على أنها الضابط لجميع خصاله من رحمة وحلم وشجاعة... فلا يجب أن يفلت زمام الصبر من الأمير في هذا كله وإلا وقع في عديد من الشرور التي قد تودى بفقد حكمه، فالرحمة مع المحكومين تحتاج إلى صبر، والشجاعة كذلك تحتاج إلى صبر، حيث قال "ابن ظفر": "والصبر لهذه الخصال... ضابط لها ضبط الأمير جنوده عن مزيلة مراكزها، والإخلال بما نصب لها من دفاع وانتفاع... والصبر أنواع.. والنوع اللائق بكتابنا هذا هو صبر الملوك، وصبر الملوك عبارة عن ثلاث قوى: القوة الأولى: قوة الحلم، وثمرتها العفو، والقوة الثانية: الكلاءة"^(٣) والحفظ، وثمرتها عمادة المملكة، والقوة الثالثة: قوة الشجاعة، وثمرتها في الملوك الثبات، وأما ثمرتها في حماة المملكة من المقاتل، الاقدام في المعارك، ولايراد من الملك الاقدام في المكافحة، فإن ذلك من الملوك تهور وطيش وتغريز، وإنما شجاعة الملك ثباته حتى يكون قطباً للمحاربين، ومعقلاً للمنهزمين، وهذا

(١) سلوان الطاع، المرجع السابق، ص ٨٧. وهنا يظهر جانب من تحليل "ابن ظفر" النفس، الذي ظهر أيضاً في موضع آخر من كتابه حيث قال عن الشخص الذي يحاول نفى طبعه: "إنما كان المطبوع أملك من أدب المؤدب لأن الطبع أصلى وتمده القرى الناشئة معه، فهو أملك بالنفس التي هي محله لاسيما أنه إياها وكثرة أعوانه بها، والأدب طارئ على الخلق غريب به"، وقوله أيضاً: "أضل المؤدبين سعيًا من طالب من المتأدب أن يعاونه على نفى طبعه عنه، وكيف وطبعه أولى به وأقرب إليه واثر عنده من مودبه، لكن المؤدب الماهر من طالب المتأدب بستر المذموم من طباعه وتعمينه والتورية عنه".. المرجع السابق، ص ١١٧ و ص ١١٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) والكلاءة هي الحفظ والحرس، وكذلك الله كلاءة بمعنى حفظك وحرسك. انظر: لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، ج ١٢ ص ١٣٢، ص ١٣٤.

مادام بحضرته من يثق فندبه عنه ودفاعه دونه وحمايته له^(١) ". وهنا انتقل "ابن ظفر" بعد ذلك الى ذكر حادثة تدلل على أن قوة الشجاعة في الأمير لم ترمس الثبات، حيث ذكر أن "موسى الهادي" كان يوماً في بستان ومعه أهل بيته وبطائنه، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من الخوارج جئى به أسيراً، وكلن "الهادي" حريصاً على الظفر به، فأمر بإدخاله بين رجلين قد امسكاه بيديه، فلما رأى الخارجى "الهادي" جذب يديه من الرجلين اللذين كانا يمسكانه واختلط (سل) سيف أحدهما ووثب نحو "الهادي"، ولما رأى ذلك من كان حول "الهادي" من أهله وخاصته فروا جميعاً وبقي "الهادي" وحده فثبت بمكانه حتى إذا قرب الخارجى منه وكاد يعلوه بالسيف، قال "الهادي" اضرب عنقه يا غلام، فالتفت الخارجى حين سمع ذلك ووثب "الهادي" على الخارجى، وسقط الخارجى تحته فقبض "الهادي" على يده وانتزع منه السيف فقتله^(٢). ولقد علق "ابن ظفر" على تلك الحادثة بقوله: "فهذه غاية الشجاعة المطلوبة من الملك، فإذا لم يكن بحضرة الملك من يثق بدفعه عنه، حسن حينئذ منه أن يذب عن نفسه، إما بالإقدام على العدو إن غلب على ظنه الامتناع منهم بالإقدام عليهم، أو بالهزامة إن أتاه مالا قبل له به^(٣)".

وجملة القول هنا بصدد قاعدة (سلوانة) الصبر، أنها أساس التعامل من جانب الأمير في مواجهة المحكومين وخاصة في حالة تمردهم، فاللين وهو أفضل الوسائل في مثل هذه الظروف يحتاج من الأمير إلى صبر.

— القاعدة (السلوانة) الرابعة "الرضى":

وهنا أوضح "ابن ظفر" مقصده من الرضى حيث قال: "إنما هو عبارة عن العزم على توطين النفس على الرضى بالقضاء إذا نزل، وإنما يتحقق الرضى بعد

(١) سلوان المطاع، مرجع سابق، ص ٧٥، ص ٧٧.

(٢) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٧٧، وص ٧٨. و"موسى الهادي" هو الخليفة العباسي الرابع، تولى الخلافة سنة ١٦٩-١٧٠هـ، بعد أبيه "المهدي"، وهو أخو "هارون الرشيد" (الذي تولى الخلافة بعده). كما ذكرت تلك الحادثة التي أوردتها "ابن ظفر" كذلك في مروج الذهب للمسعودي، ج ٢، ص ٢٥٥، وص ٢٥٦.

(٣) سلوان المطاع، المرجع السابق، ص ٧٧.

حصول القضاء".^(١) ثم دلل على ذلك المعنى بمثال فقال: إن "يزدجرد بن سابور"، لما ولد له ابنه "بهرام جور"، أراد أن ينشأ بين أمة نابية ذات همم عليّة، ونفوس أبيّة، وبهم يصير الملك إليه، فرأى أن العرب أولى الأمم بتلك الأخلاق، ووقع اختياره عليهم، فكتب إلى النعمان الأكبر ابن امرئ القيس بن عدى بن نصر اللخمى فاستحضره، ثم ملكه على العرب وسلم إليه ابنه "بهرام" وأمره بكفالاته، ولما استوفى "بهرام" من السن خمس عشرة سنة استأذن "النعمان" الملك "يزدجرد" في القدوم عليه بولده، وكان "يزدجرد" فظاً غليظ القلب شديد الكبر، مجترئاً على سفك الدماء واغتصاب الأموال، فعامل ابنه "بهرام" بالقسوة التي طبع عليها وأتبعه وكده واستعمله على مجلس شرابه، فضاقت "بهرام" ذراعاً بما ناله من أبيه، لكنه لم يظهر هذا التبرم، وأخذ يروض نفسه على الرضى بخدمة أبيه حتى انقادت لما أراد منها، ثم تحول "بهرام" إلى بلاد العرب، إلى أن هلك أبوه وورث ملكه".^(٢)

وبعد أن انتهى "ابن ظفر" من سرد ذلك المثال راح يقدم للأمير عدة نصائح حيث قال: "فليصرف الأمير فكره إلى مآذركته (الرضى بالواقع)، ليكون ما يظهره من الغبطة راجعاً إلى عقد يوافقه ومعنى يطابقه ولا يتخلق من ذلك بما يمتنى رفضه"^(٣)، كما نصحه بعدم التصنع (الرياء) مدلاً على ذلك بقوله: "لأن الرياء سراب يخدع الفطن القاصرة، ولا يخفى على البصائر الباصرة"^(٤)، وقوله: "فلا ينبغي (على الأمير) أن يظهر من ذلك ما يبطن خلافه".^(٥) ونصحه كذلك بقوله: "إن من صحب الملوك بما لا يوافقها تحركت عليه بالغضب"^(٦).

^(١) المرجع السابق، ص ١٠١.

^(٢) المرجع السابق، من ص ١٠٣ إلى ص ١٢٤.

^(٣) المرجع السابق، ص ١٠٥.

^(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

^(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

^(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

كما نصح "ابن ظفر" الأمير بعدم إفشاء سره حيث قال: "أمران يسلبان الحر كمال الحرية وهما قبول السر، وإفشاء السر، وشرح هذا إن قبلت بره فقد أوجبت على نفسك الخضوع له، والإحسان يرق الإنسان، وكذلك من أطلعته على سره فإن حذرَكَ من إفشائه يلزمك ذل الثقة".^(١)

ونصحه كذلك بالحذر من الأعداء حيث قال: "عدوك ضدك وحكم الضدين الثنائي والتنافر والتباين والتدابير"^(٢)، وقوله: "لا تطأ أرضاً وطئها عدوك إلا على فوق واحتراس وتوقى افتراس، ولا يغرك خروجه منها وبعده عنها فربما رتب فيها شباكاً ونصب لك بها أشراكاً"^(٣)، وقوله كذلك: "لا تغش عدوك إلا متسلحاً متحرزاً (يعني متوقياً) متحفظاً، ولا يغرك منه استسلامه والقائه السلاح فما كل سلاح يدرك البصر".^(٤)

ونصحه أيضاً بأن يحذر الكذب قائلاً (كما سبق الإشارة إلى ذلك): "الكذب كالسموم التي تقتل إذا استعملت مفردة، وقد تدخل في تراكيب الأدوية فينتفع بها، فلا ينبغي (للأمير) أن يطلق الكذب إلا لمن يستعمله في المصالح كالكذب في كيد الأعداء، وفي تأليف البعداء، كما لا ينبغي أن يطلق (الأمير) تلك السموم التي ذكرناها إلا للمأمونين عليها المانعين لها من المفسدين"^(٥).

^(١) المرجع السابق، ص ١١٠.

^(٢) المرجع السابق، ص ١٠٦.

^(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

^(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد نصح الأمير (في موضع آخر) بالنسبة للحذر من العدو ألا يصفى إلى دعاية العدو قائلاً: "صرفك النظر إلى عدوك إضاعة، واصفاؤك السمع إلى حديثه طاعة"، وقوله أيضاً: "إذا عجزت عن التحصن من كلام عدوك فانت عن التحصن من كيد أمعز". انظر: المرجع السابق، ص ٩٤.

^(٥) المرجع السابق، ص ١١٨، وص ١١٩.

كما حذر "ابن ظفر" الأمير من اليأس والملل وهو في طريقه لتحقيق هدفه
 حيث قال : "السامة من أخلاق العامة وليست من أخلاق السامة".^(١)

وجملة القول بشأن قاعدة الرضى ألما جاءت لتحدد علاقة الأمير القرشى
 "اس حمود" بملك صقلية، حيث نصحه "ابن ظفر" وهو بصحبة الملك ألا يخالفه
 وإلا تحرك عليه بالغضب فيفقد نفوذه بالجزيرة، وأن يوطن نفسه على الرضى بما
 هو قائم ليكون ما يظهره من غبطة متوافق مع ما بداخله، ونصحه وهو في هذه
 الحالة بعدم الكذب على نحو ما أوضح، وبعدم إفشاء سره، والحذر من أعدائه،
 ومن اليأس في هذه المرحلة.

— السلوانة الخامسة "الزهد":

وطبقاً لهذه القاعدة نصح "ابن ظفر" الأمير بأنه لو خرج الأمر من يده،
 وكانت الظروف المحيطة به أقوى منه، فعليه بالزهد في الملك. و"ابن ظفر" هنا لم
 يتحدث عن الزهد في نعيم الملك مع عدم نبذه حال الخلفاء "أبو بكر"، و"عمر"،
 وإنما تحدث عن الزهد في الملك مع نبذه له وتخليه عنه "حال معاوية بن يزيد":
 كان على صغر سنه عالماً عاملاً، أفضت الخلافة إليه وسنه سبع عشر سنة،
 فحلها".^(٢) وهنا برر "ابن ظفر" ذلك بقوله: "وأى خير في الملك وصاحبه إما
 لائم بحقوقه وعامل بالشكر فيه فذلك ميسلوب اللذة والقرار منغص العيش، وإما
 مفاد لشهواته مؤثر للذاته مضيع للحقوق مضرب عن الشكر فمصيره إلى النار..
 وإذا كان الملك والنعيم إلى زوال فأى خير فيما يفنى ويبعد؟".^(٣)

كما دعا "ابن ظفر" الأمير كذلك إلى التحرر من عبودية الملك قائلاً: "وإذا
 كانت العبودية كناية عن خدمة المعبود والحاجة إليه فأعبد العبيد الملك.. وذلك
 لأن الرعية تستخدم باطن الملك وظاهره في تدبيرها وتأييدها وصونها من عدوها

^(١) المرجع السابق، ص ١١٦، والسامة تعنى الملل واليأس.

^(٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

^(٣) المرجع السابق، ص ١٣٢.

وعونها على مصالحها وردع ظالمها ونصر مظلومها وتأمين سبلها وسد ثغورها والإعداد لما ينعتها في الجدوب ولما يحصنها في الحروب وجباية فضول أموالها وصرفها في صلاح أحوالها وحسم أسباب هيجها وإزاحة علل فتنها وهرجها، هذا مع شدة حاجة الملك إلى رعيته في صون نفسه وتنفيذ أمره وإعاض نصحه ودفع عدوه".^(١)

وأخيراً ختم "ابن ظفر" نصائحه للأمير في إطار (سلوانة) الزهد بنصحه بالزهد في الدنيا قائلاً: "قريب سلبها من سلمها، وخطفها من عطفها، والعاقل من أهلها من استعد لحيلها، وليس الاستعداد كذلك إلا للتأهب لبغيها المكتوم، وفراقها المحتوم، فالاستكثار منها نقيض ذلك".^(٢)

وهكذا، يتضح من كل ماتقدم بشأن القواعد (السلوانات) الخمس، التي قدمها "ابن ظفر" للأمير القرشي "ابن حمود" أنه قصد بها أن تكون خطوات نحو تحقيق هدف هو: عودة صقلية إلى حوزة المسلمين. فبدأ معه بقاعدة التفويض وقدم في إطارها مجموعة نصائح في حالة وقوع الضرر (والضرر هنا هو فقد صقلية) تدعوه إلى استخدام وسائل يسعى بها لتحقيق هدفه، تمثلت في وسيلتي القوة والحيلة معاً أو تغليب إحدهما (وخاصة وسيلة الحيلة) بحسب ما يميله الموقف، وتبدير أمره في ذلك كله استناداً إلى حقائق الواقع. وفي حالة كون الظروف أقوى من الأمير في سعيه لتحقيق هدفه (عودة صقلية) فيجب عليه ألا يذهل وألا يتعاس عن الوصول إلى هدفه، وفي هذه الظروف مطلوب من الأمير كحد أدنى المحافظة على نفسه ووضعه في الجزيرة، وكل هذا في إطار ما أسماه بسلوانة التأسى. ووضح أن القواعد التي جاء بها "ابن ظفر" في إطار قاعدتي (سلوانتي) التفويض والتأسى تحدد ما ينبغي أن يسلكه الأمير في سياساته مع الملوك والأمراء

^(١) المرجع السابق، ص ١٤١. وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه النصيحة رغم أن ظاهرها يدعو إلى الزهد في الملك إلا أنها تحدد حقوق وواجبات كل من الملك والرعية المتبادلة.

^(٢) المرجع السابق، ص ١٤٥.

الأخرين. أما القواعد التي ينبغي أن يسلكها الأمير مع رعيته فقد فصلها في قاعدة الصبر (وخاصة في حالة تمرد الرعية أو فسادها، وفي حالة "ابن حمود" فإن فساد الرعية تمثل في معاصرته لمحنة تنصير المسلمين ومفارقتهم الدين) فأوضح له كيف يتعامل مع الرعية باللين والرحمة لا بالقسوة في حالة فسادها. ولما رأى "ابن ظفر" أن ظروف الأمير القرشي (ابن حمود) كانت أقوى منه وأنه أخفق في تحقيق هدفه، نصحه بالرضى بما هو قائم، كما دعاه الى الزهد في الحكم في حالة خروج الأمر من يده.

هذا ولئن كان الأمير القرشي "ابن حمود" قد أخفق في تحقيق هدفه، فإن هذه النصائح التي قدمها "ابن ظفر" تصلح بصفة عامة لكي تكون قواعد لفن أصول الحكم يستخدمها أى حاكم في كسب حكم أو المحافظة عليه، وفي كيفية إدارة سياساته الداخلية والخارجية بالقوة والحيلة وباللين وكل ذلك ضماناً لقوته.

- نصائح جامعة في فن الحكم "لابن ظفر":

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد قدم نصائح جامعة لعملية الحكم، منها نصيحة تحدد ركائز الحكم حيث قال:-

"وفضيلة ذات الملك بخمس خصال: رحمة تشمل رعيته، ويقظة تحوطهم، وصوله تذب عنهم، ولبابة يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهز بها الفرص".^(١)

ويظهر هذا النص ركائز الحكم، والتي تتمثل في: توفير الحماية والأمن للمواطنين، ومعاملتهم بالرحمة، ووجود جيش وطني قوى يدفع عنهم، ومهارة دبلوماسية في معاملة الأعداء، وحزم ينتهز به الفرص لتحقيق المصالح الوطنية.

كما قدم "ابن ظفر" كذلك نصيحة جامعة تحدد مؤشرات زوال الحكم، حيث قال: "ويستدل على إدار الملك بخمسة أمور: أحدها: أن يستكفى الملك بالأحداث ومن لاخبرة له بالعواقب، والثاني: أن يقصد أهل مودته بالأذى،

(١) المرجع السابق، ص ٥٥.

والثالث: أن ينقص خراجه عن قدر مئونة المملكة، والرابع: أن يكون تقريره وإبعاده للهوى لا للرأى، والخامس: استهائه بنصائح العقلاء وآراء ذوى الحنكة".^(١) وتبين هذه النصيحة أسباب فقد الملك وتحدد مؤشرات زواله والى حددها "ابن ظفر" فى استعانة الحاكم بوزراء ومستشارين لاختبرة لهم بعملية الحكم، وأن يتجه الحاكم لمعاملة رعيته بالقسوة وينال أهل مودته بالأذى، وأن لا يستطيع توفير الاحتياجات الضرورية لإمارته فى حالة نقص مواردها عن احتياجاتها، وأن يكون تقريره وإبعاده لبطائه للهوى لا للموضوعية، واستهائه بذوى الخبرة والحنكة من مواطنيه.

هذا وانطلاقاً من هاتين النصيحتين الاجتماعيتين، وما تقدم كله بشأن نصائح "ابن ظفر" للأمير فى كتابه "سلوان المطاع"، يستخلص الباحث الأصول العامة لفن الحكم عند "ابن ظفر" فى إطار السياستين الداخلية والخارجية كما يلى:- بالنسبة للسياسة الداخلية، نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع القواعد التالية:

أولاً: الإبقاء على الحد الأدنى من الحقوق للأفراد عند تسلمه للحكم، فلا يسعى الأمير إلى إنقاصها وإلا تألب عليه أفراد مجتمعه. ثانياً: توفير الاحتياجات الضرورية لمجتمعه، من خلال حفظ التوازن بين خراج (موارد) المجتمع وقدر مئونته (متطلباته)، فإن نقص الخراج عن قدر مئونة المجتمع كان ذلك مؤشراً لزوال الحكم. ثالثاً: أن تكون الرحمة أساس التعامل مع المحكومين، بلا لين زائد، ولا قسوة فى غير مكانها، وإذا كان الأمر يتطلب استخدام القسوة (مع الخارجيين عن صف الجماعة) فإن ذلك من باب قتال أهل البغى الذين يشقون عصا الطاعة ويسعون إلى تقويض كيان المجتمع وتهديده وحدته^(٢)، أما فى حالة تمرد الرعية وفسادها فلا مجال إلا لاستخدام اللين. رابعاً: توفير الأمن للمحكومين

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) وعلى حد قول "ابن ظفر" كما تقدم: "إذا كانت الإساءة طبعاً، لم يملك لها الإحسان دفعا". انظر: المرجع السابق، ص ٣٢.

(بمظلة تحوطهم) وحماية أرواحهم وأملأهم . خامساً: تدبير وتأديب وصون الرعية من عدوها وعونها على مصالحها وردع ظالمها ونصر مظلومها وتأمين سبلها وسد ثغورها والإعداد لما ينعتها في الجذوب ولما يحصنها في الحروب وحماية فضول أموالها وصرفها في صلاح أحوالها، وحسم أسباب هيجها وإزاحة علل فتنها وهرجها، فإن أفلح الأمير في تنفيذ ذلك استطاع أن يستعين برعيته في صون نفسه وتنفيذ أوامره وإحاض نصحه ودفع عدوه.

وفي شأن السياسة الخارجية، نصح "ابن ظفر" الأمير باتباع القواعد التالية:

أولاً: حسن التدبير القائم على حقائق الواقع لا على الظنون والتصورات اللاواقعية.

ثانياً: استخدام وسيلتي القوة والحيلة^(١) معاً أو تغليب إحدهما بحسب ما تمليه طبيعة الموقف.

ثالثاً: وجود جيش وطني قوى (صولة يدافع بها عن مجتمعه).

رابعاً: توفر الحزم اللازم لانتهاز الفرص في تحقيق الأهداف.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن "ابن ظفر" قد أوضح على طول كتابه ضرورة ألا ينفرد الحاكم وحده باتخاذ القرار، وألزمه المشورة وأخذ النصيحة من وزرائه وذوى الرأي والخبرة، فكتابه مشحون بنصائح في هذا الإطار، منها: "إنما يسعد النصحاء بمثله إذا كان مؤيداً بفضيلة العقل، فإن لم يكن كذلك شقى به النصحاء وسعد به ذور الملقى (المدارة)، وهذا لأن الناصح ينفق علي من نصح له

^(١) وعلى نحو تسخيرهما المعاصرة: الإستراتيجية والدبلوماسية.

من عقله، وبالعقل يدرك العقل"^(١) ، وقوله أيضاً: "النصائح بشعة المبادئ حلوة العواقب، فهي كالأدوية يسوء استعمالها ويسر مآلها، ويذم عبها (يعني كثرتها) ويمدح غبها (قلتها)".^(٢)

كما نصح "ابن ظفر" الحاكم بأن يستخدم طلب النصيحة أداة لاختبار ناصحيه ومعرفة نواياهم وخباياهم، حيث قال: "الرأى مرآة العقل، فمن أردت أن ترى صورة عقله فاستشره"^(٣) ، وقوله: "انظر إلى المتصح فإن أذاك بما يضر غيرك ولا ينفعلك فاعلم أنه شرير، وإن أذاك بما ينفعلك ويضر غيرك فاعلم أنه طامع، وإن أذاك بما ينفعلك ولا يضر غيرك فاصغ إليه وعلول (يعنى اعتمد) عليه".^(٤)

وعمن يتجه إليه الحاكم بطلب النصيحة قال "ابن ظفر": "إذا احتجت إلى المشورة فشاوِر ذا الخنكة والتجربة من طبقتك، ولا تشاور من ليس من طبقتك فيخرجك عن حدك لكونه خارجاً عن عالم خصائصك"^(٥) ، وقوله أيضاً: "من ظن من الملوك أن لفظته فضيلة على فطنة وزيره فقط غلط....، وإنما كانت فطن الوزراء أثقب من فطن الملوك لأن الملوك يتفقهون أبداً في سياسة من دونهم من الرعايا لاغير، والوزراء يتفقهون في سياسة الملوك وسياسة الرعايا، فهم أشبه بالجوارح التي تصيد وتفترس ويصيدها أيضاً جوارح أشد منها فهي أعرف الجوارح بمكايد الاحتراس ومكايد الاكتساب".^(٦)

^(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤.

^(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

^(٣) المرجع السابق، ص ٣١.

^(٤) المرجع السابق، ص ٩٠.

^(٥) المرجع السابق، ص ٩٠.

^(٦) المرجع السابق ، ص ٥٧.

ولقد أوضح "ابن ظفر" كذلك الكيفية التي يتلقى بها الحاكم النصيحة، وذلك بقوله: "لا يمكن سماعك لأول مخبر ولا تثقتك لأول مجلس"^(١)، وقوله: "إنما يقضى بصدق المخبر عصمة المخبر لاصدقه". وشرح هذا: أن المخبر الصادق إذا لم يكن معصوماً فهو عرضة للتلبيس وفرصة للتدليس، وكون المخبر ثقة صدوقاً إنما يفيد سلامته من التحريف فيما نقله، ولا يفيد عصمة إدراكه، فقد ينظر الصادق المغفل.. إلى القمر ودونه مقطعات السحاب فيخبر بأنه أدرك سرعة سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البر فيزعم أن البر يجرى.. فلم يدخل الخلل من جهة تحريفه لكن من جهة إدراكه"^(٢)، ووضح أن هذه النصوص تبين عمق تحليل "ابن ظفر" وواقعيته حتى في تحديد القواعد التي يتلقى بها الحاكم النصيحة.

هذا وفي حالة ركوب الحاكم رأيه وعدم أخذه بالنصحية قال: "إنما يكون قبول الصواب ورده بحسب قوة التخييل الفكرى وضعفه، فمن قوى تخيل فكره فهو في سلطان الرأى غالب، ومن ضعف تخيل فكره فهو في سلطان الهوى غالب، وعلى حكم هذا القانون: فمن عدم الفكرة في الأمور التحقق باليهائم"^(٣). ولقد أوضح "ابن ظفر" من قبل أن من علامات إدار الحكم استهانة الحاكم بنصائح ذوى الآراء والخبرة.

وجملة القول في كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر" العربى الصقلى: أن الكتاب في جملة (من بدايته إلى نهايته) قواعد لفن أصول الحكم في الداخل والخارج، توضح كيفية كسب الحكم ووسائل المحافظة عليه، وأسباب فقده، وتحدد وسائل التعامل من جانب الأمير مع رعيته ومع أصدقائه ومع أعدائه في الخارج..، وكل هذا يؤكد عناية "ابن ظفر" بما نسميه اليوم "بفن السياسة"،

^(١) المرجع السابق، ص ٨٣.

^(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

^(٣) المرجع السابق، ص ٤٣.

حيث انطلق من الواقع مستهدفاً تصوير قواعد عمل في خدمة "فن الحكم" لكى يتغير بها أسلوب العمل السياسى ضماناً لفاعليته.

- موقع "ابن ظفر" من المفكرين الإسلاميين السياسيين:

وإذ انتهى الباحث من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر"، يعرض هنا لموقع "ابن ظفر" بين المفكرين المسلمين السياسيين، وبصفة خاصة بين مفكرى أهل السنة والجماعة،: "فابن ظفر" العربى، الصقلى المولد، المكى الأصل، يعد من فقهاء أهل السنة والجماعة، ومن أشهر كتاباته "المسنى فى الفقه على مذهب الإمام مالك" كما تقدم. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه يشترك مع غيره من المفكرين الإسلاميين السياسيين فى أفراد كتاب لنصح الملوك، حال "الساوردى" (٤٥٠هـ) فى كتابه "نصيحة الملوك"، وأيضاً فى كتابه "تسهيل النظر وتعجيل الظفر- فى أخلاق الملك وسياسة الملك"، وكتاب "التبر المسبوك فى نصيحة الملوك" "للغزالى" (٥٠٥هـ)، وغيرها من كتب النصيحة. لكن هذه الكتابات يغلب عليها طابع الحكمة السياسية، والذى يميز "ابن ظفر" عمّن عداه هنا من المفكرين الإسلاميين السياسيين هو تفردّه فى تصوير هذه النصائح من الواقع، حيث ظهرت نزعتة الواقعية فى تقديمه لنصائحه، وفى تصويره لقواعد وأصول فن الحكم.

وللباحث هنا تصنيف للمفكرين السياسيين الإسلاميين^(١)، وبصفة خاصة لمفكرى أهل السنة والجماعة، يوجزه ويضيف عليه ويضع "ابن ظفر" فى موقعه من هذا التصنيف:-

الفريق الأول: وهو فريق تأثر تأثراً بالغاً بالفكر اليونانى، وأصحابه مجرد نقلة لهذا الفكر، ويضم هذا الفريق: "الكندى" (٢٥٢هـ-)، و"الفارابى" (٣٣٩هـ-)، و"ابن رشد" (٥٩٥هـ-)، هذا مع التمييز هنا بين "ابن رشد" من

^(١) ولقد أورد هذا التصنيف فى كتابه: شرعية السلطة فى الإسلام- دراسة مقارنة، دار الجامعة الجديدة بالإسكندرية، ١٩٩٦، من ص ١٥٠ إلى ص ١٩١.

ماحية، و"الكندى" و"الفارابى" من ناحية أخرى، حيث يعد "ابن رشد" في مواجهتهما ضالعا في الفلسفة اليونانية، وأفقههم وأعلمهم في مجال الفكر الإسلامى.

الفريق الثانى: وهو الفريق الذى كتب أصحابه كتباً مدارة ومراءة للحكام، ويلتقون على أنه فى حالة خروج الحاكم فى قراراته عن الكتاب والسنة فإن على المحكومين الصبر، وعلى الله الجزاء، ويضم هذا الفريق: "ابن المقفع" (١٤٢هـ) فى كتابه "الأدب الكبير"، و"الطرطوشى" (٥٢٠هـ) فى مؤلفه "مراج الملوك"، و"ابن الحداد" (٦٤٩هـ) فى مصنفه "الجوهر النقيس فى سياسة الرئيس"، ويضم هذا الفريق كذلك: "الغزالى" (٥٠٥هـ) فى كتابه "التبر المسبوك فى نصيحة الملوك" و"الإحياء"، ولكن مايميز "الغزالى" عن بقية هذا الفريق أنه أقام رأيه فى هذا الشأن على أساس اجتماعى وليس على أساس دينى، واعتبره رأياً شخصياً.

الفريق الثالث: وهو الفريق الذى يمثل أصالة الفكر السياسى الإسلامى، المستمد من الكتاب والسنة، وهذا الفريق يضم ثلاث مجموعات، ولئن كانت هذه المجموعات تباين فى المنهج إلا أنها تلتقى كلها فى النتائج التى لا تخرج عن أحكام الشريعة:

— المجموعة الأولى :

وهى تضم : شهاب الدين ابن أبى الربيع (٢٧٢هـ) فى مؤلفه: "سلوك المالك فى تدبير الممالك"، و"المارودى" (٤٥٠هـ) فى مؤلفه "الأحكام السلطانية"، و"الجوينى" (٤٧٨هـ) فى مؤلفه "غياث الأمم"، و"ابن تيمية" (٧٢٨هـ) فى مؤلفه "السياسة الشرعية". وهذه المجموعة تمثل قمة الأصالة الإسلامية فى مجال الفكر السياسى ، حيث تمثلت الإسلام بمصدريه "الكتاب والسنة" خطها العريض فلم تحد عنهما، وكان منهجها فى البحث منطلقاً منهما موصولاً بهما، ومنهج هذه المجموعة هو المنهج الاستنباطى.

المجموعة الثانية :

وهى مجموعة فُج أصحابها منهجاً جديداً لم يسبقهم إليه أحد في الدراسات الاجتماعية والسياسية، حيث تناولوا عالم السياسة بواقعه وليس بما يجب أن يكون مستهدفين تفسير ظواهره فكانوا بذلك نموذجاً للمنهج العلمى التجريبي في الفكر السياسى الإسلامى، وفي مقدمة هذه المجموعة: "ابن خلدون" (٨٠٨ هـ) في مقدمته الشهيرة، وهو يعد وبحق مؤسس المنهج العلمى التجريبي في مجال الدراسات الاجتماعية والسياسية على مستوى المعرفة الإنسانية قاطبة. كما تضم هذه المجموعة "أبا عبد الله بن الأزرق" (٨٩٦ هـ) في كتابه: "بدائع السلك في طبائع الملك"، وهو كتاب لا يقل في منهجيته عن مقدمة "ابن خلدون" بل يزيد على "ابن خلدون" في إفراده كتاباً للفكر السياسى (بدائع السلك في طبائع الملك) من ناحية، ومن ناحية أخرى رد كل فكرة ليس هو قائلها إلى مصادرها الأصلية.

- المجموعة الثالثة:

ويمثلها "ابن ظفر" وحده، حيث انطلق في تصويره لقواعد فن أصول الحكم من الواقع، فإمعاناً في وصفه للواقع (حيث لم يستهدف تفسير الواقع حال "ابن خلدون" و "ابن الأزرق") راح يصور مجموعة قواعد عمل لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته في الداخل والخارج أكثر قوة وفاعلية، فكان بذلك مؤسساً لفن السياسة (على مستوى الفكر الإنسانى قاطبة) من ناحية، وكان بذلك أيضاً إماماً للواقعية السياسية من ناحية أخرى (تبعاً لارتباطه الشديد بالواقع عند تصويره لقواعد فن أصول الحكم، واتخاذ التاريخ كأداة للملاحظة الواقع السياسى)، أوبعبارى أخرى: كان بذلك مؤسساً للمنهج الاختبارى (الاستقرائى) في الدراسات السياسية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك خطأ شائعاً مفاده أن أرسطو (في القرن الرابع ق.م) هو مؤسس المنهج الاختباري (الاستقرائي) في الدراسات السياسية، وذلك أن أرسطو قد لجأ في دراسته للنظم السياسية إلى الملاحظة، ولكنه استهدف بها الإقناع بما يجب أن تكون عليه النظم في ضوء مثل معينة، فهو إن كان قد بدأ واقعياً إلا أنه استهدف ما يجب أن يكون عليه هذا الواقع، فكان منهجه بذلك منهجاً فلسفياً^(١) أما "ابن ظفر" فقد انطلق في تصويره لقواعد فن أصول الحكم من ملاحظة الواقع، واستهدف وصف هذا الواقع، وإمعاناً في وصفه لهذا الواقع صور مجموعة قواعد عمل من ثنايا مجموعة ملاحظات للواقع السياسي، استقرأها من التاريخ، فكان منهجه بذلك منهجاً اختبارياً (استقرائياً)، وله السبق على "ماكيافللي" في هذا الشأن؟

♦ ثالثاً: فن السياسة عند "مكيافللي" الإيطالي :

- التعريف بمكيافللي :

ولد "نيقولا مكيافللي" في مدينة "فلورنس" بإيطاليا سنة ١٤٦٩ م، ورغم أن مدينة "فلورنس" كانت آنذاك من أكبر مراكز الثقافة في أوروبا في عصر النهضة، إلا أن ظروفها السياسية كانت مضطربة، شأنها شأن باقي الإمارات الإيطالية حيث الفساد السياسي والانحطاط الخلقي، وفي هذه الظروف نشأ

^(١) انظر في هذا الصدد: د. محمد طه بدوي، النظرية السياسية، مرجع سابق، ص ٢٦٤، ص ٢٧٣.

"مكيافللي"، والتحق عام ١٤٩٤م بخدمة الحكومة وهو في سن الخامسة والعشرين، ورفق عام ١٤٩٨م إلى وظيفة سكرتير للمستشارية الثانية "بفلورنس"، والتي تشرف -وفق دستور فلورنس - على الشؤون الخارجية والعسكرية، وأصبح "مكيافللي" آنذاك من واضعي سياسة "فلورنس" ومخططيها، حتى أنه اختير في أربع وعشرين بعثة دبلوماسية (لفرنسا وروما وغيرهما...)، وقضى "مكيافللي" ثلاثة عشر عاماً في عمله هذا مما أكسبه خبرة ودراية بالوحدات السياسية في أوروبا آنذاك. لكن انخيازه إلى جانب الجمهوريين (شأن والده الذي كان يعمل بالمحاماه ومن المنحازين لهم) في صراعهم ضد أسرة "مديتشي" أفقده منصبه بعد عودة هذه الأسرة للحكم، ونفى "مكيافللي" من مدينته حيث أرغمت الحكومة الجديدة على التزام ضيعته بالريف لا يبارحها (معتمداً على دخل متواضع يجنيه منها)، وفي المنفى عرض "مكيافللي" إخفاقه في المنصب الحكومي بالخوض في مجال التأليف، فوضع كتابه "الإمارات" والذي عرف فيما بعد "بالأمير"، واعتزم إهداءه إلى أحد أمراء أسرة "مديتشي" آملاً بذلك أن يدعو المديشيون للعودة إلى الخدمة العامة والجاه والمنصب، وبفضل وساطة أصدقائه أوفد "مكيافللي" في أخريات أيامه في بعثات دبلوماسية (لكن لاشأن كبير لها)، كما عهد الكاردينال "دي مديتشي"، الذي أصبح فيما بعد البابا "كليمنت" السابع، إلى "مكيافللي" بكتابة "تاريخ فلورنس" مخصصاً له راتباً سنوياً صغيراً. ولقد خلف "مكيافللي" - بعد قراءاته الترجمات اللاتينية لمختلف الكتب الإغريقية القديمة - عدة مؤلفات سياسية، لكنه اشتهر بكتابين اثنين:-

أولهما: كتاب "الأمير" وأتمه سنة ١٥١٣م، ولقد وزع الكتاب على شكل مخطوط ونسخ عدة مرات، ولكنه لم يطبع إلا بعد وفاته بخمس سنوات عام ١٥٣٢م، ولئن كان هذا الكتاب قد أخفق في الواقع في تحقيق هدف مؤلفه المباشر (وهو تحرير إيطاليا من الغزاة وتوحيدها) لكنه يعتبر أحد خمسة كتب أثرت في التفكير السياسي الغربي. ^(١)

وثانيهما: مطارحاته، وهي دراسات في الكتب العشرة الأولى للمؤرخ "نتيرس ليفي" وأتمها سنة ١٥٢١، وقد جعل من تاريخ روما نقطة بداية بحثه. ^(٢)

- الظروف التاريخية التي عاصرها "مكيافللي" :

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه في أوائل العصر الوسيط كانت السلطة الزمنية والسلطة الروحية في يد الإمبراطور الروماني، ولما اتسعت سلطة الكنيسة فيما بعد أصبحت وحدها صاحبة القول الفصل في تحديد علاقة الفرد بالمجتمع، وبالسلطة القائمة، وإليها وحدها كان يرجع الأمر كله في وضع مقاييس الخطأ والصواب. لكن الأمور تطورت بعد ذلك بفضل اتصال الجيوش المسيحية الأوروبية بالمسلمين إبان فترة الحروب الصليبية، حيث وجد الأوروبيون حضارة وثقافة لا يمكن أن تقارن بحضارتهم وثقافتهم البدائية آنذاك، ولم يجدوا أثراً لسيطرة رجال الدين وحجبرهم على حرية الفكر وتقييد السلوك، كما لم يجدوا

^(١) وهذه الكتب هي: الليفيتان "لهوبز"، وكتاب الحكومة المدنية "للسوك"، وكتاب روح القوانين "لمونتسكيه"، وكتاب العقد الاجتماعي "لروسو".

^(٢) راجع فيما تقدم بشأن التعريف بمكيافللي ومؤلفاته: فؤاد محمد شبل، الفكر السياسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤، ج١، من ص ٣٣٩ إلى ص ٣٤١. وكذلك:-

- G. Mosca, Histoire des doctrines politiques, Op. cit., PP. 108-111.

وانظر أيضاً مقدمة الترجمات التالية (لكتاب الأمير):-

- Niccolo' Machiavelli, The prince, introduction, translation, and notes by Paul Sonnino, New Jersey, 1996, PP. 3-20.

- The Prince by Niccolo Machiavelli, translated by Daniel Donno, Edited and an introduction by the translator, New York, 1981, PP. 1-11, P.123, P.124.

أثراً لفكرة أن رجل الدين هو الواسطة بين الفرد وربه، كما شاهد كل مسيحي أوربي طلب العلم في جامعات الأندلس، وكل من زار صقلية حريّة البحث والتسامح الديني، ولقد كانت هذه الأفكار الإسلامية هي الركيزة الروحية لحركتي النهضة والإصلاح في أوروبا، كما كانت المطبعة والبوصلة والبارود دعائمها المادية (نتيجة اتصال الجيوش الأوربية كذلك بالتار الغزاة المتأثرين بالحضارة الصينية) إذ حطمت المطبعة احتكار رجال الكنيسة للمعرفة التي كانت وقفاً عليهم طوال ألف سنة، كما دمر البارود نظام الفروسية الذي كان وسيلة النبلاء في إخضاع جمهرة الأفراد، فأودى ذلك بنظام الإقطاع، كما أعانت البوصلة الملاحين والتجار على ارتياد البحار الواسعة، فجلبوا المواطنين سلعاً وأفكاراً لا عهد لهم بها، وكل هذا ساعد على انقياد أوضاع القرون الوسطى، ومن هنا أخذ المفكرون يهاجمون الكنيسة، ويهددون بالعقل في تدمير دعاوى رجالها. ولقد انحسر مد القرون الوسطى عن الحياة السياسية الأوربية بفعل العوامل الروحية والمادية السالفة والتي كان من آثارها حركة النهضة : La Renaissance، وحركة الإصلاح الديني، وتجدر الإشارة هنا إلى أنه نتيجة لحركة النهضة عاد العقل الأوربي إلى الثقافة اليونانية (الوثنية) القديمة التي اقتلعتها الكنيسة وطمست معالمها، إلا فيما يتصل بالآراء الفلسفية اليونانية والتشريعات الرومانية التي وافقت أغراض رجال الكنيسة، مما ترتب عليه تسويد العقل وتحكيمه في جوانب الحياة المادية والروحية.^(١)

وإيطاليا التي عاصرها "مكيافلي" كانت مقسمة إلى خمس وحدات سياسية كبيرة نسبياً هي : مملكة نابولي في الجنوب، ودوقية ميلان في الشمال الغربي، وجمهورية البندقية في الشمال الشرقي، وجمهورية فلورنس، والإمارة البابوية في الوسط. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الدويلات المستقلة التي يحكمها أمراء يتصارعون معاً ويستعينون بالممالك الكبرى على قهر خصومهم، الأمر الذي

(١) انظر فيما تقدم: فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، من ص ٣٢٩ إلى ص ٣٣٨.

أمرى الإمبراطورية الألمانية وفرنسا وأسبانيا على التدخل فى الشئون الإيطالية سعياً لإيجاد مناطق نفوذ لها. وكانت البابوية تستعين - بالتحديد - بأسبانيا حفاظاً على أملاكها فى شبة الجزيرة الإيطالية، ولرفضها تركيز السلطة فى يد حاكم واحد.

هذا ولقد شب "مكيافلى" فى عهد الأمير المديشى، الذى أطلق عليه الفلورنسيون اسم لورنزو العظيم، والذى اعتبر عهده العصر الذهبى للنهضة الإيطالية، وإليه كان يرجع الفضل فى حفظ التوازن بين الوحدات السياسية الخمس الكبرى فى إيطاليا (إلى حد ما)، وتوفى لورنزو سنة ١٤٩٢، واضطر خلفه "بيرو" إلى الخروج منفياً بعد عامين على أثر تعرض المدينة لغزو من شلزل الثامن ملك فرنسا، وظهر راهب يسمى "سافونا رولا" قام بإصلاح الجمهورية ونجح فى إقامة حكومة ثيوقراطية، مالبت أن اتهارت فأعدم الراهب سنة ١٤٩٨ (وبعد بضعة أشهر من ذلك اختير "مكيافلى" سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنس)، وحينما جاء الجيش الفرنسى من جديد (بعد ثلاثة عشر عاماً قضاها مكيافلى فى منصبه) إلى فلورنس اضطر أهلها تحت ضغط الخوف والفرع إلى استدعاء آل مديشى، وخرج مكيافلى من مدينته بدوره منفياً. ولقد ظهرت فى هذه الآونة عوامل جديدة عقدت من مشاكل إيطاليا، كما ضاعفت من تعاسة "مكيافلى" وشقائه، فقد بدأ "لوثر" إصلاحه الدينى، وأدت المنافسة بين الإمبراطور "شارل الخامس" الألمانى، والملك "فرانسوا الأول" الفرنسى للسيطرة على إيطاليا، إلى مالق بروما من خراب ، وإلى طرد عائلة مديشى من جديد من فلورنس. (١)

(١) راجع فيما تقدم بشأن ظروف إيطاليا التاريخية فى تلك الفترة:-

- G. Mosca, Op. cit., P.P. 103-108

- Linda Villari, The life and times of Niccolo Machiavelli, 1891.

وكذلك مقدمة ترجمة كتاب الأمير لـ: "Paul Sonnino"، مرجع سابق، ص ٦ إلى ص ١١.

وجملة القول هنا: أن هذا الواقع السياسى المضطرب قد أثر تأثيراً بالغاً على فكره "مكيافللى"، كما كان للواقع الاجتماعى أثر بالغ أيضاً على فكره وبصفة خاصة مانتج عنه من تسويد العقل وطرح تعاليم الكنيسة.

— تحليل نصوص كتاب "الأمير: Il principe"
"لمكيافللى":

ويتكون الكتاب من مقدمة، وستة وعشرين فصلاً، وفي مقدمة الكتاب أعلن "مكيافللى" أن كتابه هذا هدية منه إلى الأمير "لورنزو" (ابن يارو دى مديشى) حيث قال:—

“Desiderando io adunque offerirmi alla vostra Magnificenzia con qualche testimone della servitu’ mia verso di quella, non ho trovato intra la mia suppellettile cosa quale io ablia piu’ cara o tanto existimi, quanto la ‘cognizione delle azioni delli uomini grandi imparata con una lunga esperienza delle cose moderne et una continua lezione delle antique”.^(١)

وتظهر هذه النصوص رغبة "مكيافللى" في أن يقدم للأمير دليلاً متواضعاً على ولائه له، وأنه لم يجد فيما يملكه شيئاً يعترف به ويقدّره سوى معرفته بالأعمال

(١) انظر:—

- Niccolo’ Machiavelli, Il principe, presentazione di Fredi Chiappelli, Firenze, 1900, P. 11, 12.

ولقد اعتمد الباحث على فهم نصوص كتاب الأمير "لمكيافللى" على التراحيم الإنجليزية التالية:—

- N., Machiavelli, The prince, introduction, translation and notes by Paul Sonnino, Op. cit.

- N. Machiavelli, The prince, translated by Daniel Donno, Op. cit.

- N. Machiavelli. The prince, translated and edited by Angelo M. Codevilla, Boston university, 1997.

التي قام بها عظماء التاريخ، وهي معرفة حصل عليها من خلال تجربة شخصية طويلة وخبرة بالأحداث التي عاصرها، ودراسة لأحداث الماضي.

ولقد تناول "مكيافلي" في كتابه هذا من الفصل الأول وحتى الفصل الرابع عشر أنواع الإمارات (من إمارات جمهورية وملكية ومختلطة وكنسية..)، وكيفية تلك الإمارات ووسائل المحافظة عليها وأسباب فقدها. غير أن أهم ما حرص له "مكيافلي" في مؤلفه "الأمير" هو ما يتصل "بفن السياسة"، وهو موضوع الفصول من الخامس عشر إلى السادس والعشرين - أى إلى نهاية الكتاب - حيث سعى إلى تقديم قواعد ينبغي على الأمير أن يتبعها إزاء رعيته ولعل أصدقائه وأعدائه من الأمراء والملوك.

ففي الفصل الخامس عشر، والمعنون بالأمور التي يستحق عليها الأمراء المديح أو اللوم، قال "مكيافلي" في بدايته:-

“Resta ora a vedere quali debbano essere e’ modi e governi di uno principe con sudditi o con li amici”.^(١)

ويوضح هذا النص أن "مكيافلي" سيبدأ من ذلك الفصل (الخامس عشر) في بيان الطرق والقواعد التي يجب على الأمير أن يسلكها إزاء رعاياه وأصدقائه كما قال :-

“Onde e’ necessario a uno principe, volendosi mantenere, imparare a potere essere non buono, et usarlo e non usare secondo la necessita’”.^(٢)

وبين هذا النص قاعدة من القواعد التي يجب على الأمير أن يسلكها للحفاظ على إمارته، حيث نصحه "مكيافلي" أن يتعلم كيف يتعد عن الطيبة

- Niccolo' Machiavelli, Il Principe, Op. cit., P. 92.

١- انظر:

٢- انظر السابق، نفس الصفحة.

والخير (أو إن شئنا عن الأخلاق) ويتعلم كيف يستخدم هذه الأخلاق أولاً
يستخدمها طبقاً لضرورات الأحداث التي يواجهها. ومعنى ذلك أن الأمير الذي
يريد البقاء في حكمه عليه ألا يكون طيباً وخيراً على الدوام، وإنما ينبغي عليه أن
يجيد كيف يكون طيباً وخيراً وكيف لا يكون كذلك وفق ماتقتضيه الضرورة.

وفي نفس الفصل نصح "مكيافللي" الأمير في سبيل المحافظة كذلك على
إمارته بقوله:

"Et io so che ciascuno confessera' che sarebbe laudabilissima
cosa uno principe trovarsi di tutte le soprascritte qualita', quelle che
sono tenute buone : ma, perche' non si passono avere, ne'
interamente asservare, per le condizioni umane che non lo
consentono, li e' necessario essere tanto prudente, che sappia
fuggire l'infamia di quelle che li torrebbero lo stato, e da quelle che
non gnene tolgano guardarsi, se elli e' possibile, ma, non possendo,
vi si puo' con meno rispetto lasciare andore. Et ancora non si curi di
incorrere nella fama di quelli vizii, senza quali possa difficilmente
salvare lo stato".^(١)

وتظهر هذه النصوص نصيحة "مكيافللي" للأمير بأن يتحلى بالفضائل (التي
ذكرها من قبل في نصوص أخرى كأن يكون كريماً محسناً وفيماً بالعهد شجاعاً..)
غير أن ذلك الأمر - كما اعتقد "مكيافللي" - صعب التحقيق بعيد المنال لا يتفق
وحال البشرية، وتبعاً لذلك رأى أنه من الضروري أن يكتفى الأمير بأن يعرف
كيف يتجنب التصرفات الخسيسة التي تفقده حكمه، و ألا يكثر بأى لوم
يقع عليه إذا كان من الضروري ألا يتحلى عن فعل هذه الرذائل إذا كانت
ضرورية للحفاظ على إمارته.

^(١) المرجع السابق، ص ٩٣.

وفي الفصل السادس عشر والمعنون "بالكرم والبخل" نصح "مكيافللي"
الأمير بقوله :-

"E pero', a volersi mantenere infra li uomini el nome del liberale, e' necessario non lasciare indrieto alcuna qualita' di sontuosita'; talmente che, sempre, uno principe cosi fatto consumera' in simili opere tute le sua faculta'; e sara' necessitato alla fine, se si vorra' mantenere el nome del liberale, gravare e'populi straordinariamente et essere fiscale e fare tutte quelle cose chi si possono fare per avere donari. Il che comincera' a farlo odioso con sudditi, e poco stimar da nessuno, diventando povero; in modo che, con questa sua liberalita' avendo offeso li assai e premiato e'pochi".^(١)

وتوضح هذه النصوص نصيحة "مكيافللي" للأمير الذي يرغب في اشتهاره بين رعيته بالكرم أن يعرف كيف يكون كريماً، فالأمير الذي من طبيعته الكرم ولا يعرف كيف يستخدم هذا الكرم في الحفاظ على حكمه سيستزف جميع إمكانياته لكي يحافظ على هذا الكرم (الزائد) وسيجد نفسه مضطراً في النهاية لفرض ضرائب ثقيلة على شعبه فيصبح مبتزاً له، حيث سيقدم على أى عمل ليحصل به على المال، وإذا ما انحدر الأمير إلى مثل هذه الحالة فسيكرمه شعبه، ويفقد تقديره له تبعاً لفقره، وسيفتح الباب بكرمه - الذي أدى به إلى كسب قلة من الناس إلى أن يخلق روح المقاومة لدى الكثرة. ولتوضيح ذلك، قدم "مكيافللي" أمثلة واقعية بقوله:-

"Papa Lulio II, come si fu servito del nome del liberale per aggiugnere al papato, non penso' poi a mantenerselo, per potere fare

^(١) المرجع السابق، ص ٩٤، و ص ٩٥.

guerra la re di Francia : et ha fatto tante guerre senza porre uno
dazio straordinario a'sua, perche, alle superflue spese ha
sumministrato la lunga parsimonia sua. El re di Spagna presente, se
fussi tenuto liberale, non arebbe fatto ne' vinto tante imprese".^(١)

وتشير هذه النصوص إلى نصيحة "مكيافلي" للأمير بضرورة أن يعرف
كيف يستخدم الكرم والبخل في الحفاظ على حكمه، فأوضح أنه على الرغم من
أن البابا "يوليوس الثاني" قد عُرف عنه الكرم واستخدم ذلك في الوصول إلى
البابوية، إلا أنه بعد ذلك تخلى عن الكرم لكي يوفر مايلزم من وسائل تمكنه من
شن الحروب. كما قام ملك فرنسا (آنذاك) بشن عديد من حروب دون فرض
مزيد من الضرائب على شعبه لأنه غطى بتقثيره من قبل كل نفقات هذه
الحروب. وملك أسبانيا (آنذاك) لو كان كريماً لما تمكن من النجاح في عدد كبير
من المشروعات.

وفي الفصل السابع عشر والمعنون "باللين والقسوة، وهل من الخير أن تكون
محبوباً أم مهاباً" نصح "مكيافلي" الأمير بقوله:-

".. Dico che ciascuno principe debbe desiderare di esser tenuto
pietoso e non crudele: non di manco debbe avvertire di non usare
male questa pieta'. E ra tenuto Cesare Borgia crudele; non di
manco, quella sua crudelta' aveva racconcia la Romagna, unitola,
ridottola in pace et in fede".^(١)

وتبين هذه النصوص أن الأمير - كما رأى "مكيافلي" - إذا كان ينبغي
عليه أن يكون رحيماً فإنه يتحتم عليه أيضاً أن يعرف كيف يستعمل القسوة،
ذلك بأن اللين قد يؤدي إلى الفوضى، وأن القسوة تقيم النظام وتحقق الوحدة ،

^(١) المرجع السابق، ص ٩٥.

^(٢) المرجع السابق ، ص ٩٧.

وكمثراً ماتقضى على الفوضى، كما حذر "مكيافللى" الأمير من إساءة استعمال الرحمة مع رعاياه، وذكر أن قيصر "بورجيا" كان من القساة على شعبه ولكن لمسونه جاءت بالنظام والوحدة إلى بلده وفرضت عليها الاستقرار والولاء.

وفي نفس الفصل تساءل "مكيافللى" عما إذا كان من الأفضل أن يكون الأمير محبوباً أم مهاباً من قبل شعبه حيث قال :-

“Nasce da questo una disputa : s’elli e’ meglio essere amato che temuto, O e converso. Respondesi, che si varrebbe essere l’uno e l’a’ltro; ma, perche’ elli e’ difficile accozzarli insieme, e’ molto piu’ sicuro essere temuto che amato, quando si abbia a mancare dell’uno de’ dua... Ma, sopra a tutto, astenersi dalla roba d’altri; perche’ li uomini sdimenticono piu’ presto la morte del padre che la perdita del patrimonio.. E che sia vero che l’altre sua virtu’ non sorebbero bastate, si puo’ considerare in Scipione, rarissimo non solamente ne’tempi sua, ma in tutta la memaria delle cose che si sanno, dal quale li eserciti sua in Ispagna si rebellorono. I e che non nacque da altro, che dalla troppa sua pieta’, la quale aveva a’ sua soldati piu’ licenzia che alla disciplina militore non si conveniva”.^(١)

وتظهر هذه النصوص الإجابة على ذلك التساؤل الذى طرحه "مكيافللى" عما إذا كان من الأفضل أن يخاف الناس الأمير بدلاً من أن يحبوه، حيث رأى "مكيافللى" أنه من الواجب أن يخاف الناس الأمير وأن يحبوه، ولكن لما كان من العسير الجمع بين الخوف والحب فإنه من الأفضل أن يخافوه على أن يحبوه... وعمل "مكيافللى" ذلك بقوله لأن الناس لا يترددون في الإساءة إلى الأمير الذى

^(١) المرجع السابق، ص ٩٨، وص ٩٩، وص ١٠٠، وص ١٠١.

يجعل نفسه محبوباً، بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه... وضرب
"مكيافللي" على ذلك مثلاً "لشييو" الذي ثارت عليه جيوشه في أسبانيا بسبب
إغراقه في اللين مع جنوده الذين سمح لهم بأشياء لا تتفق والنظام العسكري.

وفي الفصل الثامن عشر، والمعنون "بكيف يتوجب على الأمير أن يحافظ
على عهوده" قدم "مكيافللي" مجموعة قواعد للأمير في علاقاته مع الأمراء
الآخرين، حيث قال:-

"Dovete a dunque sapere come sono dua generazione di combattere: l'uno con le leggi, l'altro con la forza : quel primo e' proprio dello uomo, quel secondo delle bestie : ma, perche' el primo malte volte non basta, conviene ricorrere al secondo. Per tanto, a uno principe e' necessario sapere bene usare la bastia e lo uomo... Sendo adunque uno principe necessitato sapere bene usare la bestia, debbe di quelle pigliare la golpe et il lione; perche' il lione non si difende da' lacci, la golpe non si difende da' lupi. Bisogna adunque essere golpe a conoscere e'lacci, e lione a sligottire e'lupi. Coloro che stanno semplicemente in sul lione, non se ne intendano. Non puo', per tanto, uno signore prudente ne' debbe osservare la fede, quando tale osservanzia li torni e che sono spente le cagioni che la feciono promettere. E, se li uomini fussino tutti buoni, questo precetto non sarebbe buono; ma, perche' sono tristi e non la osservarebano a te, tu ancora non l'hai ad osservare a loro. Ne' mai a uno principe mancorono cagioni legittime di colorare la inosservanzia".^(١)

^(١) المرجع السابق، ص ١٠٢، ص ١٠٣.

وباستفاد من هذه النصوص أنه يصدد علاقات الأمير تجاه غيره من الأمراء هله كما رأى "مكيافللى" أن يجمع في تصرفاته معهم بين أساليب الإنسان والحيوان، حيث قال للأمير: عليك أن تدرك أن ثمة سبيلين للصراع، أحدهما بواسطة القانون، والثاني بواسطة القوة، وبينما يلجأ البشر إلى السبيل الأول يلجأ الحيوانات إلى السبيل الثاني، لكن السبيل الأول غير كاف عادة لتحقيق الأهداف المرجوة، ولذلك فعلى الأمير أن يلجأ إلى السبيل الثاني، بل إنه من الضروري أن يعرف الأمير كيف يستخدم الطريقتين معاً... ورأى "مكيافللى" أنه إذا التجأ الأمير إلى وسيلة الحيوان عليه أن يتخذ من بين الحيوانات: الثعلب والأسد كمثل يحتذى به في هذا الشأن، فعليه أن يعمل على أن يكون ثعلباً وأسداً في آن واحد. ذلك أنه إذا لم يكن الأمير إلا أسداً ما استطاع أن يتبين الشباك التي تنصب له، وأنه إذا لم يكن إلا ثعلباً لعجز عن مواجهة الذئاب، ومن ثم فإن الأمر يقتضى أن يكون الأمير أسداً وثعلباً في ذات الوقت. وفيما يتعلق بالوعود والتعهدات التي يعطيها الأمير للآخرين عليه أن يكون ثعلباً فلا يراعى الضمير إذا كان من شأن ذلك الإضرار به، ويرر "مكيافللى" ذلك بأن هذا الأسلوب يصبح غير طيب لو أن الناس جميعاً كانوا خيرين (لكنهم - عنده - غير ذلك). فالناس في تصور "مكيافللى" سيئون لا يراعون وعودهم للأمير، ومن ثم فهو أيضاً في حل من البقاء بوعده تجاههم. ولقد اكتفى "مكيافللى" هنا بإعطاء مثال معاصر له دلل به على ذلك، حيث قال:-

"Io non voglio delli freschi tacerne uno. Alessandro VI non fece mai altro, non penso' mai ad altro che ad ingannare uomini, e sempre trovo' subietto da paterlo fare. E non fu mai uomo che avessi maggiore efficacia in asseverare, e con maggiori giuramenti affermassi una cosa, che l'osservassi meno; non di meno, sempre li

succedero l'inganni ad votum, perche' conosceva bene questa parte del mondo".^(١)

وتشير هذه النصوص إلى مافعله البابا ألكسندر السادس الذى لم يقم بأى عمل سوى خداع الآخرين، بل ولم يفكر فى شئ سوى ذلك، ونظراً لتفوقه ومهارته فى تقديم الوعود كان دائماً يجد الفرصة لنجاح خداعه فى الوقت الذى لم يكن هناك من هو أقل منه تمسكاً بهذه الوعود.

هذا وفى الفصول من التاسع عشر إلى الرابع والعشرين، نصح "مكيافلى" الأمير عدة نصائح منها أن يتجنب كل ما يؤدى إلى تعرضه للاحتقار والكراهية من جانب شعبه، وأن يخلق بمكره عداوات فى الداخل والخارج متى اتاحت له الفرصة لذلك، حتى إذا ماقهر أعداءه ضاعف من مكانته وعظمته، ونصحه كذلك أن يعمل لاكتساب الشهرة، وأن يحسن اختيار وزرائه وذلك عن طريق اختيار الوزير الذى يستهدف فى جميع أعماله مصالحه (أى مصالح الأمير) وليس مصالح ذلك الوزير الخاصة، كما نصحه أيضاً بالابتعاد عن المنافقين، وأن يعمل للوقاية من النفاق من ثانياً جعل الجميع يدركون أنهم لن يسيئوا إليه إذا ماواجهوه بالحقائق، وأن يقبل الأمير النصيحة دائماً.

وفى الفصل الخامس والعشرين، والمعنون بـ "أثر القدر فى الأمور الإنسانية وطرق مقاومته" عرض "مكيافلى" رأيه فى أحكام القدر، حيث قال :-

"E'non mi e'incognito come molti hanno avuto et hanno opinione, che le cose del mondo sieno in modo governate dalla fortuna e da Dio, che li uomini con la prudenzia loro non posaino correggerle, anzi non vi abbino remedio alcuno... I udico patere esser vero che la fortuna sia arbitre della meta' delle azioni nostre,

^(١) المرجع السابق، ص ١٠٤.

ma che ancora lei ne lasci governare l'altra meta', oppresso, a noi".^(١)

وتوضح هذه النصوص رأى "مكيافلي" في أحكام القدر، حيث يرى أن كثيرين يعتقدون بأن الأحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر، ويتحسمان فيها الله، وأنه ليس للبشر (من باب الحكمة والتبصر) أن يغيروها أو يبدلوها، بل عليهم الاستسلام الكامل لما دون محاولة فعل أى شئ... أما هو فليس في وسعه أن يتجاهل الإرادة الإنسانية تماماً، ومن رأيه أن يعزو الإنسان إلى القدر التحكم في نصف عمله لأن القدر ترك له النصف الآخر أو ما يقرب ليتحكم فيه بنفسه.

وفي الفصل الأخير من كتابه "الأمير" (الفصل السادس والعشرين) والمعنون بـ "الدعوة إلى تحرير إيطاليا من البرابرة" دعا الأمير "لورنزو"، الذي أهدى إليه الكتاب، إلى تحرير إيطاليا من الغزاة البرابرة (ويقصد بهم فرنسا وألمانيا وأسبانيا آنذاك).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أفكار "مكيافلي" لم تقتصر فقط على كتاب "الأميرة"، بل امتدت إلى مطارحاته^(٢) بصفة خاصة (السابق الإشارة إليها)، ففي هذه المطارحات بحث "مكيافلي" في توسع الجمهورية الرومانية، كما ظهر فيها تعامله للدين وفصله عن السياسة، وكذلك فكرة القوة والحيلة كأساس لسياسات الحكومات. ومما جاء من آراء في هذه المطارحات موقف "مكيافلي" من الكنيسة (كنيسة روما آنذاك) حيث قال :-

^(١) المرجع السابق، ص ١٣٧، ص ١٣٨.

^(٢) انظر :-

- Niccolo' Machiavelli, Discorsi - sopra la prima deca di Tito Liuiò, Milano, 1919.

ومحمد الباحث في فهم بعض النصوص التي أوردتها هنا على التراجم التالية لمطارحات "مكيافلي" :-

- The discourses by Niccolo' Machiavelli, translated by Max Lerner, New York, 1940.

- , translated by Daniel Donno, New york, 1981.

“Abbiamo dunque con la chiesa e coi preti nio Italiani questo primo obbligo, d'essere diventati senza religione e cattivi; ma ne abbiamo ancora un maggiore, il quale e' cagione della rovina nostro. Questo e' che la chiesa ha tenuto e tiene questa nostra provincia divisa. E veramente alcuna provincia non fu mai unita o felice, se la non viene tutta all' ubbidienza d'una repubblica o d'uno principe, come e' avvenuto alla Francia ed alla Spagna. E la cagione che la Italia non sia in quel medesimo termine, ne' abbia anche ella o una repubblica o uno principe che la governi, e' solamente la chiesa: perche' avendovi abitato e tenuto imperio temporale, non e' stata si potente, ne' di tal virtu' che l' abbia potuto occupare il restante d' Italia, e farsene principe; e non e' stata, dall'altra parte si debile, che, per paura di non perdere il dominio delle cose temporali, la non abbia potuto convocare un potente che la difenda contro a quello che in Italia fosse diventato troppo potente”⁽¹⁾

وتدلل هذه النصوص على موقف "مكيافلي" من الكنيسة الإيطالية، حيث هاجمها بقوله: نحن الإيطاليين ندين لكنيسة روما وقسيسيها بما وصلنا إليه من حالة الارتداد عن الدين وفساد الخلق، بل وبما هو أعظم من ذلك الأنهيار⁽²⁾. ذلك أن الكنيسة عملت ولازالت تعمل (آنذاك) على تقسيم إيطاليا التي لا يمكن لها أن تتحد، ولا أن تمنا إلا إذا خضعت لحكومة واحدة سواء أكانت ملكية أو جمهورية كما هو الحال في فرنسا وأسبانيا، لكن إيطاليا لم تكن أيًا منهما

- N. Machiavelli, Discorsi, OP., cit., P. 64.

⁽¹⁾ انظر:-

⁽²⁾ حيث شاهد "مكيافلي" اغتيال وطنه عام ١٥١٢.

وسبب ذلك كله هو الكنيسة التي لم تكن لديها القدرة على فرض سيادتها على جميع أنحاء إيطاليا، كما لم تسمح لغيرها القيام بتلك المهمة، وإذن هي المسؤولة عن تفتيت إيطاليا وعدم وحدتها تحت حكومة واحدة، حيث سعت لتمزيقها بين هدهد من إمارات وجعلتها فريسة سهلة المنال لا للبرابرة الأقوياء فحسب بل ولأى أمير يرغب في النيل منها في سعيه لزيادة قوته.

♦ رابعاً : مقابلة بين كل من "مكيافللى"، و"ابن ظفر":

وإذ انتهى الباحث من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر" العربي الصقلى بالتفصيل اللاحق، وكتاب "الأمير" "لمكيافللى" (على سبيل الاستشهاد)، فإنه واضح أن كليهما سعى إلى تقديم قواعد عمل لو اتبعها الأمير لحاءت سياساته (فى الداخل وفى الخارج) أكثر قوة وفاعلية، ومن ثم فقد سعى كلاهما لتقديم قواعد لفن أصول الحكم تكفل له أقصى درجات الفاعلية. وفيما يلى يعرض الباحث لنقاط التشابه والخلاف بينهما:

- أولاً : نقاط التشابه :

أولها : أن كليهما قدم كتابه هدية إلى أمير، "فابن ظفر" قدم كتابه "سلوان المطاع" هدية إلى قائد صقلية وزعيم المسلمين بها "ابن حمود" آملاً بذلك أن يسعى هذا الأمير القرشى إلى توحيد المسلمين بالجزيرة والعمل على عودتها إلى حوزة المسلمين من أيدي النورمان (على نحو ما قام به الموحدون من استرداد المهديّة من أيديهم فى نفس العام الذى ألف فيه "ابن ظفر" كتابه هذا). "ومكيافللى" كذلك قدم كتابه "الأمير" هدية إلى الأمير "لورنزو" آملاً أن يقوم هذا الأمير بتوحيد إيطاليا بعد تحريرها من يد الغزاة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مصير هذين الكتابين كان الإخفاق فى تحقيق هدفهما فى حياة كل من "ابن ظفر" و "مكيافللى".

ثانيها : إرساء قواعد عمل ووسائل لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته أكثر قوة وفاعلية: من قوة وحيلة، والاستناد إلى جيش قوى، وحسم الأمور، والحزم في انتهاز الفرص تحقيقاً للأهداف، وعدم استخدام اللين الزائد مع المحكومين.

ثالثها : التزعة الواقعية في التحليل، فالمعرفة لديهما مستمدة من التجربة العملية، والقواعد التي قدمت من جانبيهما في فن أصول الحكم جاءت مستندة إلى أحداث تاريخية.

رابعها : النسبية وعدم تقبل أى حل من جانبيهما في العملية السياسية على أنه نهائي، ففي قاعدة "التفويض" التي قدمها "ابن ظفر" يرى أن التفويض لأحكام القدر لايعنى الاستسلام والتواكل بل يعنى الثبات والمثابرة والعمل المستمر للخروج من الموقف بأقل الخسائر الممكنة، وفي هذا الإطار يذهب "مكيافللي" - كما تقدم - إلى القول بعدم الاستسلام الكامل للأحداث دون محاولة فعل أى شئ حيث عزا إلى القدر التحكم في نصف العمل، وأن القدر قد ترك للإنسان النصف الآخر أو مايقرب ليتحكم فيه بنفسه.

خامسها : الإشارة إلى مفهوم القوة في الدراسات السياسية، في تناولهما لاستخدام وسيلتي القوة والحيلة من جانب الأمير في سياسته الخارجية ضماناً لقوته.

- ثانياً : نقاط التباين :

أولها : مسألة فصل الأخلاق عن السياسة، حيث نصح "مكيافللي" الأمير بأنه لكي يبقى في حكمه فعليه أن يعرف كيف يجيد استخدام الرذائل وألا يكثر بأى لوم يقع عليه من جراء ذلك عملاً بمبدأ "الغاية تبرر الوسيلة"، ولأن التحلى بالفضائل أمر لايتفق وحال البشرية. أما "ابن ظفر" فيذهب إلى النقيض مما نصح به "مكيافللي" الأمير من دعوته له بفضل الأخلاق عن السياسة، بل ربط بينها ونصح الأمير في حالة تمرد رعيته بكف الأذى وبسط العدل والإحسان وتأمين السبل وإجارة المستجير والأخذ بالفضل والعفو. من هنا كلن الأمير الأفضل عند "ابن ظفر" هو الذى يربط سياسته بالأخلاق الفضلى، أما

الأمير الأفضل عند "مكيافلي" فهو الذي يطرح الأخلاق جانباً في سياساته، ولذلك كان "مكيافلي" يبدى إعجابه بالبابا ألكسندر السادس وهو الكاردينال "روديجو بورجيا" الذي دأب على استخدام السم في مواجهة خصومه، والذي لم يفعل شيئاً سوى خداع الناس، ولم يترك فرصة لخداعهم إلا واستغلها، وكان لدبراً على إيهام سامعية بصدقه وإخلاصه، كما كان "سيزار بورجيا" (ابن البابا ألكسندر السادس) بطل "مكيافلي" الأثير، وقد عاصره، وألمهته سيرته تأليف كتابه "الأمير"، و"سيزار بورجيا" هذا هو الذي قتل أخاه الأكبر واغتال زوج أخته ومئات غيرهما تثبيتاً لسلطانه. (١)

ثانيها : تصور كل منهما للدين، فعلى حين يرى "ابن ظفر" الفقيه والمفسر أن الدين عماد الحياة والسياسة معاً حيث جاءت نصائحه للأمير متفقة مع الشرع، يرى "مكيافلي" أن الدين (المسيحي) يدعو إلى الانكسار واحتقار الدنيويات، وذلك في مواجهة ديانة الإغريق الوثنية التي تقدر الأبطال وتؤله رجال الفكر والفن العظام، كما أن الدين - عنده - ليس إلا أداة من أدوات الحكم يقود بها الأمير شعبه، ولو أن الأمير كان قوياً وكافراً لكان أفضل من أن يكون مؤمناً ضعيفاً. (٢)

ثالثها : نظرة كل منها إلى الطبيعة البشرية "فمكيافلي" سيئ الظن بالطبيعة البشرية على طول كتابه، وليس هذا بغريب إذ عاصر "مكيافلي" "سيزار بورجيا" وغيره من سفلة إيطاليا، ومن رجال الدين المنحرفين، فالأمير العاقل - في تصوره هو الذي يقيم سياسته على افتراض أن الإنسان شرير بطبعه. وعلى النقيض من ذلك يأتي تصور "ابن ظفر" للطبيعة البشرية حيث لم يكن سيئ الظن بها في كتابه "سلوان المطاع"، بل وفي كتاب آخر له بعنوان "أنباء نجباء الأبناء" (السابق الإشارة إليه) راح يبرز أفضل ما في الطبيعة البشرية.

(١) راجع في هذا الصدد، فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، ص ٢٤٣، وص ٣٤٤.

(٢) راجع بصدد تصور "مكيافلي" للدين، المطارحات، مرجع سابق، ص ٦٣، وص ٦٤.

رابعها : التشاؤم، وهو الطابع الغالب على تفكير "مكيافللي"، حيث يرى أن الإنسان غير قابل للتغيير وعاجز عن بلوغ الكمال، على حين يؤمن "ابن ظفر" بأن الإنسان مهياً بطبعه لبلوغ الكمال وأن بوسعه الارتقاء بذاته بفضل تحرير طاقته الذهنية والنهوض بها، حيث طالب الأمير في حالة وقوع الضرر بعدم التقاعس وإعمال الحيلة ما استطاع، وحذره من اليأس والسآمة (الملل) وهو في طريقه لتحقيق هدفه. ولاشك أن التشاؤم الذي غلب على تفكير "مكيافللي" قد انعكس على نصائحه للأمير حيث رأى أنه ليس للأمير متسع من الوقت لممارسة المعنويات وأن هناك فجوة واسعة بين الواقع العملي والمثاليات. (٣٠)

خامسها : أن فكر "مكيافللي" قد جاء تمجيداً للحكم الشمولي وتقديساً لمبدأ أنانية الحكام في تعبئة الجماهير لخدمة غايتهم الطاغية في التوسع وإحاطتهم بمالات الجحد والفخار، فينتهي الأمر بهم إلى جنون العظمة، وتجرح شهوتهم التي لاحد لها الكوارث على قومهم بل وعلى العالم أجمع (ولقد استهوت أفكار "مكيافللي" تلك كلاً من نابليون وهتلر وموسوليني...). أما "ابن ظفر" فيستشف من كتابه أنه غير مبال إلى الحكم الشمولي، بل هو كثير النقد للملوك والأمراء الذين ينفردون باتخاذ القرار وحدهم دون استشارة وزرائهم أو ذوي الخبرة والتجربة، وانتقد كذلك القساة، من الملوك والأمراء، على رعييتهم حيث غلب استخدام الرحمة مع الرعية ولكن بلا لين زائد، أما "مكيافللي" فقد رأى أنه من الأفضل أن يخاف الرعية الأمير من أن يجبره، وأباح القسوة والقتل والغش أو أية وسيلة طالما أن ذلك يحافظ على الإمارة، وبصفة خاصة أثناء نشأة الإمارة (أى عند إحلال نظام جديد محل نظام قديم)، وكل ذلك على أساس أن المنفعة - عنده - هي أساس العلاقات الإنسانية، وأن الأمير الأفضل هو الذي يحقق أقصى منفعة ممكنة وبأية وسيلة. (٣١)

(١) راجع بصدد تصور "مكيافللي" للطبيعة البشرية، وبصدد غلبة التشاؤم على تفكيره: فؤاد محمد شبل، المرجع السابق، ص ٣٤٥، وص ٣٤٨، وص ٣٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٦. وانظر كذلك بصدد مكيافللي والحكم الشمولي:-

- Raymond Aron, Machiavel et les tyrannies modernes, Fallois, Paris, 1993.

خاتمة

رواضح من كل ماتقدم : من تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر" بالتفصيل المتقدم، ومن تحليل نصوص كتاب "الأمير" "مكيافللي" (على سبيل الاستشهاد)، ومن مقابلة كل منهما من ثانيا نقاط التشابه والخلاف - واضح سبق "ابن ظفر" العربي الصقلي في تصوير قواعد فن أصول الحكم بحوالى أربعة قرون، حيث نبه إلى وسائل وأدوات لو اتبعها الأمير لجاءت سياساته أكثر قوة وفاعلية، حال استخدام وسيلتي القوة والحيلة (المكيّدة) - وعلى نحو لسميتهما المعاصرة الإستراتيجية والدبلوماسية - في سياساته (الخارجية) إزاء الأمراء الآخرين، وحال استخدام وسيلة اللين في سياساته (الداخلية) إزاء الرعية، لكن لا لين زائد وإلا أدى ذلك إلى فساد الرعية وهكذا.

رواضح كذلك نزعة "ابن ظفر" الواقعية في تصوير قواعد فن السياسة، باستناده إلى أمثلة تاريخية تدلل على صحة تلك القواعد، حيث نهج في ذلك منهجاً اختصارياً (استقرائياً)، وهو سابق على "مكيافللي" في هذا الصدد، إلى جانب سبقه له في الإشارة إلى مفهوم "القوة" في الدراسات السياسية.

من هنا يعتبر "ابن ظفر" العربي الصقلي هو المؤسس الحقيقي لفن السياسة - ممدولوه المعاصر - على مستوى الثقافات الإنسانية قاطبة، وليس "مكيافللي" كما يدعى الغرب ذلك. بل وربما تأثر "مكيافللي" "بابن ظفر" كغيره من الإيطاليين (حال دانتى الذى تأثر في أفكاره عن الآخرة بالمسلمين..) الذين تأثروا بالثقافات العربية والإسلامية، حيث كانت صقلية هى الجسر الذى نُقلت الثقافة العربية والإسلامية عبره إلى إيطاليا وأوروبا الوسطى في وقت كانت فيه أوروبا كلها تعيش عصور ظلامها وتحلفها، وخاصة وأن النورمان (ومن بعدهم الإمبراطورية الجرمانية) كانوا حكام صقلية وجنوب إيطاليا في ذات الوقت، هذا إلى جانب ترديد "مكيافللي" لأفكار جاء بها "ابن ظفر" حال استخدام وسيلتي القوة والحيلة، وعدم استخدام اللين الزائد مع الرعية، والاستعانة بالأمثلة التاريخية

الواقعية فى التدليل على صحة قواعد العمل فى مجال السياسة، والنسبية فى عدم تقبل أى حل نهائى للموقف، وإلى حد ما رأيه فى التصرف مع أحكام القدر، وهكذا.

ولقد ظهرت جدارة "ابن ظفر" ومهارته فى تصديه لفن السياسة، بتصوير قواعد فن أصول الحكم بصفة عامة، وبإعمال الحيل بصفة خاصة. ولم يبق بعد ذلك "لمكيافللى" سوى فكرته عن فصل السياسة عن الأخلاق (والدين)، ومبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" كأساس لفن الوصولية، ونظرته التشاؤمية للإنسان، وسوء ظنه بالطبيعة البشرية، وتمجيده للحكم الشمولى. فهو من خلال استخفافه بالدين والأخلاق، وأدبه المكشوف، وفرديته المتطرفة، وماديته السافرة، يعد وبحق مرآة لعصره، فهو الابن البار لعصر النهضة الذى كان من سماته الإعراض عن الدين وإيثار الجوانب العملية، ونبذ فكرة وجود نظام ربانى للإنسان والكون.

انتهى بحمد الله .

المضامين

الصفحة

٢	* تقديم
٣	- موضوع البحث
٣	- هدف البحث
٣	- منهج البحث
٤	- خطة البحث
٥	* التعريف بعبارة "فن السياسة" (فن أصول الحكم)
٦	* فن السياسة عند "ابن ظفر"
٦	- التعريف بابن ظفر
٨	- التعريف بكتاب "سلوان المطاع" "لابن ظفر"
١١	- الظروف التاريخية لجزيرة صقلية والتي عاصرها "ابن ظفر" ..
١٤	- تحليل نصوص كتاب "سلوان المطاع"
٣٧	- موقع "ابن ظفر" من المفكرين السياسيين الإسلاميين
٤٠	* فن السياسة عند "مكيافلي"
٤٠	- التعريف "بمكيافلي"
٤٢	- الظروف التاريخية لإيطاليا والتي عاصرها مكيافلي
٤٥	- تحليل نصوص كتاب الأمير "لمكيافلي"
٥٦	* مقابلة بين كل من "مكيافلي" و "ابن ظفر"
٥٦	- نقاط التشابه
٥٧	- نقاط التباين
٦٠	* خاتمة